العنوان:	البديع النبوي مميزات وخصائص: دراسة في كتاب أذكار الرسول صلي االله عليه وسلم للإمام النووي
المصدر:	مجلة كلية الآداب
الناشر:	جامعة سوهاج - كلية الآداب
المؤلف الرئيسي:	إبراهيم، ناصر راضي الزهري
المجلد/العدد:	ع36
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الشهر:	مارس
الصفحات:	31 - 73
رقم MD:	985558
نوع المحتوى:	عروض كتب
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الأدعية والأوراد، تخريج الأحاديث، النووي، يحيى بن شرف بن مري، ت. 676 هـ
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/985558

© 2018 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

مجلة كلية الآداب
"دوريَّةٌ – أكاديميَّةٌ – علميَّةٌ – مُحَكَّمةٌ"
عدد (٣٦) مارس ٢٠١٤م ص ص: ٣١ - ٧٣
جامعة سوهاج
كلية الآداب

البديع النبوي مميزات وخصائص
(دراسة في كتاب أذكار الرسول – ﷺ – للإمام النووي)

د. ناصر راضي الزهري إبراهيم (*)

المقدمة

الحمد لله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، والصلاة، والسلام على أشرف خلقه، وخاتم رسله محمد – صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

وبعد..

فإن البلاغة النبوية هي أولى القبلتين لمن أراد قمة البلاغة البشرية خاصة، وثاني القبلتين لمن أرد قمة البلاغة عامة.

فكلمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – في عبارته، وعبارته في حديثه، وحديثه في حوار الزمان، كان الرسن الذى قاد قافلة البشرية؛ فسارت خلفه تتهادى على صراط ظاهر يحدوها قلب طاهر.

حيث وحَّد قبائل متفرقة، وهذب أخلاقاً جافية، وطهرها من رجس الجاهلية، وصنع من أفرادها نماذج من الفضيلة قادت الإنسانية من غياهب الجور إلى دروب النور.

"إن هذا الفيض الروحي للكلمات هو الذى أحدث هذا الهدم في داخل النفس الجاهلية، وهو أيضاً الذى أحدث هذا البناء الجديد، والتكوين النقي لهذه النفس".(١)

وما ثمَّ أداة استخدمها الرسول – صلى الله عليه وسلم – لذلك إلا بيانه العالي، وأسلوبه الراقي الذى طرق به الأسماع؛ فأصغت له، ومسَّ به أغشية القلوب؛ فرقَّت له.. ففعل بها فعل السحر –،وما هو بساحقد–جمع الله لرسول – صلى الله عليه وسلم – أسباب البيان، وطلاقة اللسان، وقوة الجنان، ثم أطلعه على الجنة بنعيمها،والنار بجحيمها، ورأى ما رأى عند سدرة المنتهى،وما كشف له من أهوال القبور، والحشر، والنشر، وزوى الله له الأرض؛ فرأى مشارقها، ومغاربها، واختصه الله بمعارف بصرية، وقلبية، وجمع له بين علم اليقين، وعينه مع الخشية القلبية واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره.

كل هذه المعاني جاشت في صدره، وحملها قلبه، وتفاعلت معها كل ذرة في جسده، وأمر بتبليغها للناس جميعًا على اختلاف أجناسهم، ولغاتهم،واختلافهم في درجات الفهم، والاستيعاب، ومع علمه بأنه يخاطب في جيله كل أجيال الأمة، ومع إدراكه لتطور الزمان، واختلاف المكان؛ فصاغ بيانه في صورة فوق وهم العبقري؛ فجمع أعظم المعاني في أرق وأدق الأساليب حتى راع العرب حديثه؛ فصاروا يتناشدونه بينهم.

وفنون البديع من أدق، وأرق الفنون التي استخدمها في تقرير المعاني، وتحقيق الإعجاز في التعبير لاسيما في باب الذكر، والدعاء، فجمع أعمق المعاني، وأعظمها خطرًا في أجمل لفظ، وأضح بيان طيّ أفصح الأساليب البشرية على الإطلاق.

(*) الأستاذ المشارك في قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر في أسيوط، والأستاذ المساعد في كلية الآداب والعلوم – جامعة سلمان بن عبد العزيز في وادي الدواسر – السعودية.

(١) قراءة في الأدب القديم/ د. محمد محمد أبو موسي/ صـ٢٦١. الطبعة الأولى/ ١٩٧٨م/ ط. دار الفكر العربي.

ونموذج كهذا أعده إله خبير بخلقه محيط بدقائقهم مهما اختلف زمانهم، ومكانهم حري بأن يكون أولى القبلتين لمن يريد دراسة بلاغة البشر خاصة، وثاني القبلتين لمن يريد دراسة البلاغة عمومًا.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي دارت حول بلاغة الرسول –صلى الله عليه، وسلم– وبعض الدراسات التي تناولت أنواعًا من البديع النبوي، أو تناولت بعض الأحاديث بالتحليل البديعي،إلا أنه لم تفرد دراسة خاصة بمميزات البديع النبوي تسعى إلى بيان ما أمكن من خصائصه، وتبرز سر تميُّزه، وتكشف عن سرَّ صدارته لأساليب البشر.

وإن كانت بعض الدراسات البلاغية العامة قد عرضت لألوان من البديع النبوي، ولكن من غير هذه الوجهة، وبخلاف هذا الطريق، ودون توسع بل في إطار دراسات أخرى، كما أن دراسة أحاديث الذكر، والدعاء لم يسبق دراسة فنون البديع فيها – في علم الباحث –.

ولما كانت غاية هذا البحث دراسة خصائص البديع النبوي، والتي يمكن خلالها الفصل في كثير من القضايا البلاغية آثر أن يعرض نموذجاً من النسق العالي؛ ليكون قبلة المتعلمين والمعلمين على السواء؛ فالكل في بستان البيان النبوي عيال علم.

حيث إنه يعرض للطريقة النبوية في استخدام ألوان البديع، والتي تمثِّل النموذج الأعلى في توظيف هذه الأساليب بطريقة تخدم المعنى، وتحقق الإقناع في أسلوب رقيق يمس شغاف القلوب بطبع لا تكلف فيه قد استدعاه المعنى، وارتبط به.

وهذا التوظيف البارع لألوان البديع طي الحديث النبوي بهذا الجمال الفني الذي يحقق أغراض التعبير بين تحقيق التبليغ، والإمتاع النفسي يستوجب الوقوف على أسرار تلك الألوان، وأشكال التوظيف التي تكشف القيمة الفنية لألوان البديع، وصلته بالمعنى.

الأمر الذي يضع حلاً للإشكالية القائمة بين من أسرفوا في استخدام البديع، وبين من أهملوه نظراً لما ورد من ذم للمتقعرين، والمتشدقين، والمكثرين من فنونه.

كما أنه يقدم صورة عملية للقيمة الفنية لألوان البديع، وأثرها الوثيق بالمعنى،ويقرر عملياً أن الذم ليس لألوان البديع، ولا للإكثار من استخدامها حين يستدعيها المعنى، وإنما الذم لطريقة الاستخدام الخاطئة، أو للغرض الجائر المنصوب له الكلام الوارد فيه.

قال الجاحظ:(قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي، وإقامة الوزن. قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب، والحاضر، والراهن، والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد، وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره...) (٢)

فأثر ألوان البديع في تيسير الحفظ، وسهولة النقل، وتحقيق الزيوع، والانتشار لا يخفى وكذا التأثير القوي لألوان البديع في استمالة المخاطبين لاعتماد كثير من ألوانه على الناحية الصوتية في التأثير فى المخاطب، ولا شك أن التأثير فى المخاطبين من أهم الأمور التي يسعى إليها الشاعر بشعره، والناثر بنثره

(٢) البيان والتبيين/المؤلف: أبي عثمان عمرو بن بحر/ ١٥٣/١/ تحقيق: المحامي فوزي عطوي/ الطبعة الأولى، ١٩٦٨الناشر: دار صعب – بيروت.

بل إن المتكلم الذي لا يعنيه فن القول في الخطاب الساذج يسعى إلى تحقيق ذلك لإقناع من يخاطبه بما يريد.

<u>سبب اختيار احاديث الذكر والدعاء وسبب اختيار كتاب الأذكار للإمام النووي</u>[٣]

وقد اختار البحث في البديع النبوي أحاديث الذكر والدعاء، والتي جمع الإمام النووي (٤) منها ما يربو على ألفي حديث في كتابه الشهير(الأذكار)تختار الدراسة منها نماذجها،وهذا سبب اختياره من بين كتب الحديث النبوي التي جمعت أحاديث الذكر والدعاء ؛ لأنه جمع في كتابه هذا ما تفرق في كتب السنة الأخرى من أحاديث الذكر والدعاء وأحسن تبويبها، وتنسيقها.

وأحاديث الذكر، والدعاء من الأحاديث التي تكثر فيها ألوان البديع، وتتعاضد في تناغم رقيق يحقق جملة من الأغراض تستحق الوقوف على أسرارها طويلاً.

وترجع الكثرة في ألوان البديع في هذه النوعية من الأحاديث لمقتضى الحال حيث يكثر دورانها على الألسنة، وتكرارها على مدار اليوم، والليلة ؛ فاحتاجت أكثر من غيرها لألوان من البديع تحقق اليسر في النطق، والقبول في السمع، وسهولة الحفظ، وسرعة الانتشار، والقرارَ في الوجدان عن طريق بعض العوامل الصوتية، والنفسية لألوان البديع التي تترافق مع المعنى، وتتصل به.

ومن ثم يخلص البحث إلى رصد ما أمكن من خصائص البديع في الحديث النبوي، حتى تكون قبلة لمن يؤم فنون القول عامة، ولأرباب البيان، والدارسين خاصة.

---

(٣)كتاب الأذكار لإمام النووي كتاب شهير في بابه جمع فيه الأمام النووي مئات الأحاديث النبوية التي تتناول الذكر الدعاء الوارد عن الرسول – صلى الله عليه، وسلم – في مختلف أحواله، وقد دارت حول الكتاب كثير من الدراسات بعضها اختصره، وبعضها شرحه، وبعضها خرَّج أحاديثه، وبعضها نسج على منواله، وقد طُبع الكتاب أكثر من مرة مع اختلاف في التسمية، وقد اخترنا في هذا البحث طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت – لبنان بتحقيق بسام عبد الوهاب الجابي سنة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م ؛ لأنها استفادت من كل الطبعات التي سبقتها، وتداركت ما نقص عندها، وجاءت أوفى من غيرها، وعنوانها (حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار) المعروف بالأذكار النووية للإمام الحافظ الفقيه أبي زكريا بن يحي بن شرف النووي الدمشقي.

(٤)الإمام النووي (٦٣١ – ٦٧٦ هـ = ١٢٣٣ – ١٢٧٧ م) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران، بسورية) واليها نسبته.
تعلم في دمشق، وأقام بها زمنا طويلا. من كتبه " تهذيب الاسماء واللغات – ط " و " منهاج الطالبين – ط " و " الدقائق – ط " و" تصحيح التنبيه – ط " المنهاج في شرح صحيح مسلم – ط " خمس مجلدات، و " التقريب والتيسير – ط " في مصطلح الحديث، و " حلية الابرار – ط " يعرف بالأذكار النووية، و " خلاصة الاحكام من مهمات السنن وقواعد الإسلام – خ " و " رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين – ط " و " بستان العارفين وغيرها كثير ومؤلفاته لا يكاد أن يخلو منها بيت مسلم وكان ورعًا تقيًا لا يخشى في الله لومة لائم توفي بدمشق سنة ٦٧٦ هـ) ينظر الأعلام للزركلي/ ج: ٨ ص: ١٤٩ –١٥٠ الناشر: دار العلم للملايين/ الطبعة: الخامسة عشر/ ٢٠٠٢ م.

– أهداف البحث:

١- عرض الصور المثلى لاستخدام فنون البديع في النسق الأعلى في حديث رسول الله – صلى الله عليه، وسلم- على الوجه الأمثل في الاستخدام الذي يقطع بأهمية هذه الفنون بين علوم البلاغة، ويبيِّن قيمتها.

٢- الوقوف على خصائص البديع في حديث الرسول- صلى الله عليه، وسلم-،ومميزاته حتى تكون نموذجًا يحتذيه الأدباء، والباحثون، والدارسون.

٣- حل الإشكالية التي طالما أشعلت المعارك الأدبية بين النقاد، والشعراء والأدباء حول قيمة فنون البديع، وصلتها بالمعنى، وبيان المسيء من المحسن في تعاطي فنون البديع وذلك خلال عرض الطريقة الدقيقة في توظيف هذه الفنون، والكشف عن الجانب الجمالي فيها مع تغلغلها في عمق المعنى.

٤ – إبراز الجانب الجمالي للتعبير النبوي في أحاديث الذكر، والدعاء، والتي يكثر تكرارها على ألسنة الناس على مدار اليوم، والليلة، وفي أعمالهم اليومية.

٥- الإشارة إلى التناسق البديع، والعجيب بين مختلف الأشكال البلاغية في أساليب النبي صلى الله عليه، وسلم-فيما بينها خدمة للغرض، وأسرار تراكيبها، ومظاهر تفوُّقها، وأسباب صدارتها لكل أساليب البشر في إطار الذكر، والدعاء.

– أهمية البحث:_ تأتي أهمية هذا البحث من كونه الدراسة الأولى التي تُفرد لدراسة خصائص البديع النبوي، وتحاول أن تضع بين أيدي الدارسين، وكل من يؤم البيان النبوي الخصائص الفريدة للبديع النبوي، والتي تصدَّر بسببها أساليب البشر.

وإذا كان الإكثار من البديع مثار نقد في مجال الإبداع القولي شعراً، ونثراً، فقد كان الإكثار من ألوان البديع في كثير من أحاديث الذكر، والدعاء سبباً من أسباب التفوق الأسلوبي، ومصدرَ إعجاب لأرباب الفصاحة والبيان، وهو مما دعا الباحث إلى اختيار هذه النوعية من الأحاديث للبحث.

كما يعرض البحث الصورة المثالية لتوظيف فنون البديع حيث إن الاستخدام النبوي لألوان البديع جاء في صورة متكاملة جمعت بين عمق المعنى، ودقة الصياغة،وجمالها دون تكلُّف لحشد ألوان البديع، ولا إهمال لها، وهذا التوازن الدقيق يظهر قيمة علم البديع بين علوم البلاغة.

كما أنه يسعى إلى البحث في سر العبقرية النبوية في استخدام هذه الألوان البديعية، وعناصر الجلال، والجمال في النسق الأعلى.

منهج البحث:

يعتمد البحث المنهج التحليلي البلاغي الذي يقوم على تحليل الحديث الوارد في إطار الذكر والدعاء، ودراسة الظواهر البلاغية التي أسهمت في خروجه في صورته التي ورد عليها.

كما يستخدم المنهج الوصفي الذي يكشف الظواهر الخاصة بالنسق النبوي في طريقة توظيف الألوان البديعية في السياقات المختلفة.

وقد حرصت في اختيار الشواهد التي قمت بتحليلها على أن تكون شاملة لما أمكن حصره من خصائص البديع النبوي، وطرق الرسول صلى الله عليه، وسلم -المتنوعة في استخدامه.

فأبدأ بذكر نص الحديث مضبوطًا بالشكل مع عزوه إلى مصدره من كتاب النووي، ومن كتب السنة، ثم أذكر مقدمة للمعنى العام للحديث، والطريقة العامة للرسول –صلى الله عليه، وسلم– في عرض المعنى.

ثم أتناول الألوان البديعية الواردة في الحديث موضحاً اللون البديعي بالتحليل، وبيان أثره على السياق العام، وطبيعة اتصاله بغيره من الألوان البلاغية،ودوره في أداء المعنى.

وأخيرًا أحاول بيان ما أمكن من خصائص البديع، ومميزاته في هذه الأحاديث.

وقد رأيت تقسيم الدراسة إلى مباحث يتناول كلُ مبحث منها خصيصة من هذا الخصائص تسبقها مقدمة، وتتلوها خاتمة، وفهارس.

خطة البحث

المقدمة

أسباب اختيار أحاديث الذكر والدعاء.

أسباب اختيار كتاب الأذكار للإمام النووي.

أسباب اختيار الموضوع.

أهداف البحث.

منهج البحث.

خطة البحث.

المبحث الأول:

من خصائص البديع النبوي: لزوم الطبع مع كثرة الألوان البديعية وتتابعها.

المبحث الثاني:

من خصائص البديع النبوي: المهابة والجلال مع الحسن والجمال.

المبحث الثالث

من خصائص البديع النبوي: اتساق الألوان البديعية مع مساحة المعنى.

المبحث الرابع:

العذوبة في اللفظ، والجمال في السمع واليسر في الفهم.

المبحث الخامس:

من خصائص البديع النبوي طرافة معانيه وجدَّتها.

المبحث السادس:

من خصائص البديع النبوي كثرة الألفاظ الموحية بطبيعتها فيه.

الخاتمة

الفهارس

المبحث الأول
من خصائص البديع النبوي: لزوم الطبع مع كثرة الألوان البديعية وتتابعها

إذا كان الطبعُ، والسجيةُ وسيلة كل مبدع في فنون البلاغة عامة، وفي ألوان البديع خاصة، فطريقتهم في ذلك تتبع ما يجود به الطبع، وما تسمح به السجية، وهذا لا يتأتى في كل مقام، ولا يوجد بمجرد الرغبة، ولا عند كل حاجة.

ليصير لزوم الطبع مع كثرة البديع خصيصة للنبي –صلى الله عليه، وسلم – من واقع المعنى، وبمقتضى البلاغة بشهادة السياق، والمقام، فقد تتابع حديثه، وكثرت دواعيه، وتعددت مقاماته، مع حاجة الناس إلى سياسة الأفهام، وعلاج الأوهام، وتصحيح الأخطاء في العقيدة، والعبادات، والمعاملات.

قال الجاحظ عن الطبع في كلام النبي–صلى الله عليه، وسلم –: (وهو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله – تبارك وتعالى– قل يا محمد: (...وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ...) (ص الآية:٨٦) فكيف..؟، وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي ؛ فلم ينطق الا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق) (٥)

وإذا نظرنا في حديثه –صلى الله عليه، وسلم – وجدنا هذا ماثلًا بيِّنًا، تأمل ألوان البديع في جمل محدودة، وكلمات معدودة من قول: الرسول اللّه –صلى الله عليه، وسلم –: " كَلِمَتَان خَفِيفَتَان على اللِّسان، ثَقِيلَتَان في الميزَان، حَبِيبَتَان إلى الرَّحْمَن: سُبْحَانَ اللَّه وَبِحَمْدِه، سُبْحَانَ اللَّه العَظِيم ". (٦)

هذه الألوان البديعية لا تشعر بكثرتها بينما يسحرك أثرها، وجمالها، وما لها من إشعاع على اللفظ والمعنى، والسياق، وما لها من تأثير على المخاطب في سمعه، وعقله، ووجدانه.

أولُ ما يطالعنامن بلاغة هذا الحديث في معانيه هذا التوشيعُ(٧): في ذكر المثنى (كلمتان) ثم تفسيرُه بما بعده. ولا يخفى ما فيه من التشويق للمعنى حيث يتطلع السامعون لمعرفة هذا المثنى، وهو لون من ألوان السيطرة على الوجدان، وتوجيهه إلى المقصود من البيان.

---

(٥) البيان والتبيين/المؤلف: أبي عثمان عمرو بن بحر/ ص: ٢٢١/ تحقيق: المحامي فوزي عطوي/ الطبعة الأولى، ١٩٦٨/ دار صعب – بيروت.

(٦) الأذكار للنووي (حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار (المعروف بالأذكار النووية) للحافظ الفقيه أبي زكريا بن يحي بن شرف النووي الدمشقي – (٦٣١–٦٧٦هـ) ص ٤٩ – باب مختصر في أحرف مما جاء في فضل الذكر غير مقيد بوقت الحديث رقم (٧٩) تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت – لبنان – سنة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م.وينظر الجامع الصحيح سنن الترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي)/ ج: ٥/ ص: ٥١٢/ الحديث رقم (٣٤٦٧) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون/ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٧) قال ابن أبي الإصبع: (التوشيع هو: أن يأتي المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز ثم يأتي باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى يكون الخير منهما قافية بيته او سجعة كلامه كأنهما تفسير ذلك وقد جاء في السنة من ذلك ما لا يلحق بلاغة...) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الإصبع المصري ص: ٣١٦ تحقيق د: حفني محمد شرف/ القاهرة: ١٤١٦ه ١٩٩٥م.

وما أجمل براعة الاستهلال ([٨]) بالبداية بما يحقق التشويق، ويحمل النفوس على المتابعة بحيث لا يتفلت السامعون حتى يتقرر المعنى في أذهانهم.

ولا يخفى على السامع، والقارئ جمالُ هذا السجع: في نهاية كل جملة من الجمل (خَفِيفتَانِ على اللّسان، ثقِيلتَان في الميزَان، حَبِيبَتَان إلى الرَّحْمَن) والذي ربط بين جمل الحديث برباط من النغم الجميل الذي يذهب بجماله في النفس كل مذهب.

والذي نشأ عن إلحاق علامة التثنية بأواخر الكلمات (كَلِمَتَانِ – خَفِيفتان – ثَقِيلتَان – حَبِيبَتَان) والألف، والنون التي وقعت في أواخر الكلمات (اللسان – الميزان – الرحمن) فنشأت عنه موسيقى عذبة أعطت الحديث جمالًا في السمع، وخفة على اللسان، وقبولاً في الوجدان.

وفي الكلمات الثلاث الأخيرة ترافق السجع مع الجناس الناقص الرقيق في قوله (اللسان – الميزان – الرحمن) وهو تكامل في الصورة السمعية يجعل العبارة نشيدًا يتغنى به كل مسلم في طرب، وخشوع يجتمعان لا يتنافران.

أضف إلى ذلك الطباق في قوله (خفيفتان، وثقيلتان) والذي يكشف جمال المفارقة العجيبة بين خفة المؤنة في هذا العمل، وعظم الأجر منبهًا إلى ضرورة اغتنام هذا الثواب الجليل الذي لا يكلّف المسلم أدنى عناء.

كذلك نرى التناسب بين الألفاظ، والمعاني ([٩])في الحديث على أكمل صورة فالتعبير بلفظ (الرحمن) دون غيره من الأسماء الحسنى، والصفات العلى حيث تناسب هذا الاسم مع بقية الحديث من حيث اللفظ، والمعنى.

فمن حيث اللفظ انسجم مع رونق اللحن الشجي الذي سبقه، والذي لحقه ؛ لأنه ختم بنفس الفاصلة، فأحكم الصلة في جرس السجع، ونغم العبارة مع الجناس في بقيتها، والتوازن الصوتي في ترصيع الجمل.

ومن ناحية المعنى: بشَّر بعظمة الفضل لما هو معلوم من أنه لا يهب هذا العطاء الجزيل مقابل العمل القليل إلا من عظمت رحمته ؛ لأن تكثير الثواب في كفة الحسنات سيقابل خطايا العبد في كفة السيئات، فيرجح بها، وينجو من عذاب أليم، وهذا من رحمة الله بعبده.

ولما كان التعبير بالرحمن، وليس بالرحيم، وهما اسمان اشتركا في الدلالة، وافترقا في مساحتها.. إذا المعلوم أن صفة الرحمن على وزن فعلان فيها مبالغة في الدلالة على الرحمة، والتعبير بها يقتضي مزيداً من الرحمة، وهو ما يحققه الثواب الجزيل على الكلمتين الخفيفتين ؛ لأنهما يثقلان ميزان العبد ؛ فينجو من النار، ومن زحزح عن النار، فسيدخل الجنة، فصفة الرحمة تقتضي العتق من النار، والمبالغة في الصفة تشير إلى إدخاله الجنة، وهي ترغيب، وحث على لزوم هذه الكلمة العجيبة.

---

(٨) براعة الاستهلال هي ابتداء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله...) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الإصبع المصري ص: ١٦٨.

(٩)المناسبة على ضربين: مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ، فالمعنوية أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ... وأما المناسبة اللفظية فهي توخي الإتيان بكلمات متزنات، وهي على ضربين: تامة وغير تامة، فالتامة أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة وأخرى ليست بمقفاة، فالتقفية غير لازمة للمناسبة....) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الإصبع المصري ص: ٣٦٣: ٣٦٧.

والمناسبة بين بقية الألفاظ واضحة فالثقل، والخفة ضدان يقترنان في الذهن، وألفاظ (الميزان – والرحمن – وسبحان – والله) كلمات من واد واحد في عقيدة المسلم، وما يؤمن به، وينشغل به، وهو من الجمع بين الشيء، وما يشابهه، ويعرف في البديع بمراعاة النظير.

وأيضًا الترصيع(١٠) في قوله: (كَلِمَتَان خَفِيفتَان على اللِّسان، ثَقِيلتَان في المِيزَان، حَبِيبَتَان إلى الرَّحْمَن) وهو تصيير مقاطع الأجزاء على سجع، أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف، وهو إيقاع يستميل السامع إليه عبر نغمة متوازنة، فالكلمات (كَلِمَتَانِ – خَفِيفتانِ – ثَقِيلتَانِ، حَبِيبَتَان) ألفاظ متوازنة بعثت نغماً، وتأثيراً يهدهد الوجدان بعد أن يخضع الأذهان بواضح البيان.. فضلاً عن تلك الغنة البديعة المنبعثة من صوت النون مما يقوّي هذا النغم الذي ينسجم في الإيقاعين الخارجي، والداخلي، والذي يُحكم التأثير في سمع المتلقي، وقلبه، والأثر موصول كذلك في الكلمات:(الرحمن – الميزان – اللسان).

وفي قوله (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ) انسجام، وهو أن يكون الكلام متحدرًا كتحدر الماء المنسجم، سهولة سبكٍ، وعذوبة لفظٍ، وهو ما جعل للكلام وقعًا في النفوس، وتأثيرًا في القلوب ليس لغيره.

ولا ننسى الإرصاد، ويسمى التسهيم، وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة ما يدل على العجز (١١)حيث يشير المعنى في بداية الحديث إلى عطاء عظيم مقابل عمل قليل، ففيه إشارة إلى عظمة المجازي لما هو معلوم من ارتباط الأثر بالمؤثر، وهو ما ختم به الحديث في وصف الله بالعظيم في قوله: (سبحان الله العظيم).

ومع كثرة هذه الألوان البديعية التي اجتمعت في هذه الكلمات القليلة إلا أنها لم تفارق الطبع قيد أنملة،فقد اجتمع في الحديث (براعة الاستهلال – التوشيع – السجع – الجناس – الترصيع – الطباق – التناسب في الألفاظ – التناسب في المعاني – الانسجام(١٢) – مراعاة النظير (١٣)– والإرصاد) ومع هذا الكثرة في ألوان البديع، وتتابعها لو حاولت تغيير كلمة بأخرى لتتفادى لونًا من هذه الألوان لسقط النسق من يد البيان.

ولنأخذ – مثلًا – كلمة (الرحمن) في قوله (حَبِيبَتَان إلى الرَّحْمَن) ونستبدله – في غير قول الرسول – صلى الله عليه، وسلم – بلفظ الرحيم، ثم نراجع العبارة من ناحية اللفظ، والمعنى تقول: (كَلِمَتَان خَفِيفتان على اللِّسان، ثَقِيلتَان في المِيزَان، حَبِيبَتَان إلى الرَّحيم) فأما من ناحية اللفظ،فلا يخفى الفارق في السمع بين العبارة قبل التغيير، وبعده يستوي في إدراك ذلك رب البيان، وغيره.

---

(١٠) الترصيع أب يكون ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية...) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني) ص: ٣٦٢/ الناشر: دار إحياء العلوم – بيروت/ الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.

(١١) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني) ص: ٣٢٦.

(١٢) الانسجام هو أن يأتي الكلام متحدرا كتحدر الماء المنسجم، سهولة سبك وعذوبة ألفاظ، حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الموزون وقع في النفوس وتأثير في القلوب ما ليس لغيره، مع خلوه من البديع، وبعده عن التصنيع....) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الإصبع المصري ص: ٤٢٩.

(١٣) الايضاح للخطيب القزويني ص: ٣٢٣.

فقد انقطعت الصلة الوجدانية، وذهبت عبقريةُ الصورةِ السمعيةِ التي نشأت من اتصال نغمة السجع التي ربطت بين كلمات الحديث برباط ساحر.

ومن ناحية المعنى يدرك أرباب البيان أن ثمة فرقا كبيرًا من ناحية مساحة المعنى بين التعبير بالرحيم، والتعبير بالرحمن سبقت الإشارة إليه.

يمكن أن نكرر ذلك مع كلمة أخرى، ومع كل كلمات الحديث ستجد عجبًا من تمَسُّكِ كل كلمة بموقعها، وثباتها في موضعها يصرخ فيك معناها إن ذهبتْ..ذهبتُ !.

وهو ما يقرر أنه لا تعارض بين وجود الطبع، وكثرة الاستخدام لألوان البديع كما ادعى أكثر النقاد في غير البيان النبوي، كما يقرر أن الخطأ في طريقة الاستخدام، وسوء التوظيف للألوان بحسب المعنى، ورعاية الحال.

قال الإمام عبد القاهر عن قيمة الطبع في ألوان البديع: (وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ولا تجد عنه حولا ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن واولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه أو ما هو لحسن ملاءمته وإن كان مطلوباً بهذه المنزلة وفي هذه الصورة...) ([١٤])

ومتى لزم المتكلم الطبع، وبعد عن التكلف حقق غاية الكلام مع توفر الجمال الذي تحققه فنون البديع، قال الإمام عبد القاهر:(وإن أنتَ تتبِّعته من الأثر وكلام النبي تَثِقْ كلَّ الثقة بوجودك له على الصِّفة التي قدمتُ، وذلك كقول النبي : " الظُّلْم ظُلُماتٌ يوم القيامة "، وقوله: " لا تزالُ أُمَّتِي بخيرٍ ما لم ترَ الغنى مَغْنَماً، والصدقة مَغْرَماً "، وقوله: " يا أيُّهَا الناس؛ أفْشُوا السلام، وأطْعِمُوا الطعام، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا بالليل، والناسُ نِيامٌ، تدخلُوا الجنَّةَ بسَلامٍ "، فأنت لا تجد في جميع ما ذكرتُ لفظاً اجتُلِب من أجل السجع، وتُرك له ما هو أحقُّ بالمعنى منه وأبرُّ به، وأهدَى إلى مَذْهبه)([١٥]).

وبعد فهذا الأحاديث، وأشباهها مثال ماثل في أعين الدهر، وباقة فوَّاحة من أعبق الزهر تشهد بأن ترافق الطبع، وكثرة البديع فريدةٌ من فرائد البيان النبوي اختص بها دون غيره، فإن من أولع بفنون البديع من الشعراء، والأدباء سار في طريق من ثلاث: فمن سلك طريق الطبع بلغ منتهاه في البديع مقلًا، وخلاه ذم..وإن تاه في الناس مدلًا.

ومنهم من سلك طريقة الصنعة، ورُزق المهارة، فهو في الناس على قدر تلك المهارة، ولكنه سار من الطبع في غير ناحية.

والثالث أكثر من البديع دون إتقان الصنيع، فسقط من يد البيان.

والحديث شاهد كذلك على قوة الاتصال، وشدة التماسك بين ألوان البديع فيما بينها، وفيما بينها، وبين ألوان البلاغة الأخرى.

---

(١٤) أسرار البلاغة/ ص: ١٠ ت: محمود محمد شاكر/ الطبعة الأولى/ ١٤١٢ هـ ١٩٩١م/ مطبعة المدني.

(١٥) أسرار البلاغة/ ص: ١٢.

ومن الأحاديث التي تضمَّنت كثيرًا من ألوان البديع، وصدرت طبعية أبعد ما تكون عن التكلف ما جاء عن عليّ رضي اللّه عنه:أن النبيّ – صلى الله عليه، وسلم – كان إذا ركع يقول: " اللهمَّ لكَ ركَعْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، ولكَ أسْلَمْتُ، خَشَعَ لكَ سَمْعي وبَصَري ومُخّي وَعَظْمي وَعَصبي ". (١٦)

يستشعر المتأمل لألفاظ الحديث، ومعانيه تمام الاستغراق في الخضوع، واستشعار الذل بكل ذرة من أجزاء الجسم، والذي برزت فيه ألوان البديع في قمة الطبعية، وتمام اتساق المعنى في اللفظ ؛ لأن المعنى الذي يدور الحديث حوله يتنافى أصلًا مع التكلف، والتزيين ؛ فهو على الجهة المقابلة حيث إظهار الذلة، والمسكنة، وفرط التهالك في الخشوع.

وتراكيب الحديث من بدايتها تفصح عن ذلك، فقد صدَّر الحديث بلفظ له دلالة، وإيحاء، وإشعاع ينبع من هذا المعنى، ويصب في هذا الاتجاه؛ ليقود النفس بداية نحو هذا المسار الأسمى إلى بلوغ قمة العزة بتحقيق أقصى ما يمكن من ضروب الذل، والخضوع لله في أرقى عبادة.

هذا اللفظ هو: (اللهم) ولهذا اللفظ في النداء ما له من خصوصية، فهو نداء تفخيم، وتعظيم:"وأصل الأسلوب يا الله: حذفت أداة النداء، وعوض عنها الميم في آخر لفظ الجلالة"(١٧)

وقيل: زيدت الميم للتعظيم، والتفخيم كزيادتها في زرقم، قال ابن فارس: الزرقم: أجمع أهل اللغة أن أصله من الزرق؛ فإن الميم فيه زائدة.(١٨)

والميم حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه، فوضعته العرب علماً على الجمع؛ فقالوا للواحد:أنت فإذا جاوزه للجمع قالوا:أنتم، كذلك في المتصل يقولون: ضربت، وضربتم، وإياك، وإياكم،وإياه، وإياهم، ونظائره نحو: به، وبهم..إلخ.

وإذا علم هذا من شأن الميم، فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم الذي يسأل الله – سبحانه – به في كل حاجة، وكل حال إيذاناً بجميع أسمائه، وصفاته، فالسائل إذا قال: اللهم إني أسألك كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العليا بأسمائه، وصفاته، فتأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذانا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها، والداعي مندوب إلى أن يسأل الله –تعالى– بأسمائه وصفاته كما في الاسم الأعظم.

قال الحسن البصري:(اللهم) مجمع الدعاء، وقال أبو رجاء العطاردي أن الميم في قوله (اللهم) فيه تسعة، وتسعون اسماً من أسماء الله – تعالى –، وقال النضر بن شميل:"من قال اللهم؛ فقد دعا الله بجميع أسمائه.(١٩)

---

(١٦) الأذكار للنووي ص ١٢١: باب أذكار الركوع الحديث رقم (٢٩٩) وسنن الترمذي/ ج: ٥/ ص: ٤٨٦/ الحديث: (٣٤٢٢).

(١٧) على رأي البصريين ينظر كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين/ المؤلف: أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري) جـ: ١/ ص ٣٤٣/ الناشر: دار الفكر – دمشق.

(١٨) مقاييس اللغة لابن فارس/ جـ ٣/ صـ ٥٣ ت عبد السلام هارون – الطبعة الثالثة مكتبة الخانجي ١٤٠٣هـ ١٩٨١.

(١٩) ينظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم/ جـ ١/ صـ ٥٧٦ ط دار الوسيلة/ الطبعة الأولي ١٤١٨هـ ١٩٩٨ جدة السعودية.

لذلك نجد الرسول –صلى الله عليه، وسلم – كثيراً ما يفتتح بها الدعاء ليفتح به آفاق الكون بداية بسمع الداعي، وقلبه، وانتهاءً بفتح أبواب السماء لهذا الخاشع المتبتل المتهالك في الطلب السابح في نهر الخضوع نحو شاطئ العطايا.

وإذا تأملنا نسق البديع في الحديث بعدها نجد انسجامًا في قمة الجمال في السمع، والعقل وتجانسًا في اللفظ تمثَّل في عدة صور منها:

السجع الرقيق في قوله (ركعت – آمنت – أسلمت) حيث ختمت الثلاثة الأولى بالتاء، وختمت الأربعة الأخيرة بالياء (سمعي – بصري – مخي – عظمي – عصبي) وهو ما أحدث موسيقى خفية تهوى النفس سماعها، وترديدها.

زد على ذلك الجناس الناقص بين سمعي، وعظمي، وله من الأثر المشترك بين السمع، والعقل ما له.

والترصيع الدقيق الذي أحدث توازناً في الجمل الثلاث الأولى: (لكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، ولكَ أسْلَمْتُ).

زادها جمالًا بنغم آسر مبعثه صوت الكاف الذي تردد في الضمير الذي تصدَّر كل جملة، وفي صوت التاء الذي ختمت به الجمل الثلاث الأولى: (اللهمَّ لكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، ولكَ أسْلَمْتُ).

والتناسب الواضح بين الألفاظ، والمعاني لاسيما بين (سمعي)، و(بصري)، وهما أهم المنافذ إلى القلب، فإذا خضعا،وذلَّا لم يُدْخِلا عليه إلا ما يحفظ حاله مع ربه، ويدعم حالة الخشوع التي استولت على جنباته، وملكت أقطار نفسه.

والطباق المفهوم بين (عظمي) و (عصبي) من حيث بروز العظم، وخفاء العصب ؛ ليستوعب ما ظهر من الأعضاء، وما بطن، وفيه من المبالغة في استغراق الخضوع، والخشوع لكل ذرَّات البدن ما يحسن في هذا المقام.

وفي قوله (آمنت، وأسلمت) مراعاة نظير بالجمع بين الشيء، وما يشابهه. وكذلك الجمع بين الركوع والخشوع، وأيضا في الجمع بين السمع، والبصر، والمخ، والعظم،والعصب.

وهذا شاهد على التناسب بين الألفاظ، والمعاني في الحديث؛ لأن من أسلم لله، وآمن به خضعت له كل جوارحه، وذلت.

وهذا الحشد الكبير الذي تضمَّنه الحديث من ألوان البديع التي أشرنا إليها، والتي لم نشر إليها جاءت طبعية لا تشعر بوجودها بقدر ما تشعر بأثرها في روعة المعنى، وحسن النسق، وشدة العلوق بالسمع، والقلب، وهو ما يتطلّبه هذا اللون من الأدعية التي يراد لها كثرة الترديد،وقال محمد بن سلام قال يونس بن حبيب ([٢٠]) عن كلام النبي–صلى الله عليه، وسلم –: (ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله –صلى الله عليه، وسلم –) ([٢١]).

---

(٢٠)يونس بن حبيب (٩٤ – ١٨٢ هـ = ٧١٣ – ٧٩٨ م) يونس بن حبيب الضبي بالولاء، أبو عبد الرحمن، ويعرف بالنحوي: علامة بالأدب، كان إمام نحاة البصرة في عصره أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء وغيرهم من الائمة. قال ابن النديم: كانت حلقته بالبصرة، ينتابها طلاب العلم وأهل الادب وفصحاء الاعراب ووفود البادية وقال أبو عبيدة: اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملا كل يوم ألواحي من حفظه. من كتبه " معاني القرآن " كبير، وصغير، و " اللغات " و " النوادر "و " الامثال " ينظر البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لمحمد بن يعقوب الفيروزأبادي ص: ٨٤/ تحقيق: محمد المصري/ دار النشر/ جمعية إحياء التراث الإسلامي – الكويت – ١٤٠٧/الطبعة: الأولى.

(٢١)البيان والتبيين للجاحظ/ ص: ٢٢٢.

ومن الجدير بالذكر أن تصرف البليغ في أسلوبه يجعل ما يمكن أن يكون عيبًا عند غيره ميزة تحسب في أسلوبه من ذلك ما جاء في حديث ابن عباس –رضي اللّه عنهما– في مبيته في بيت خالته ميمونة رضي اللّه عنها، ذكر الحديث في تهجّد النبيّ – صلى الله عليه، وسلم – قال: فأذّن المؤذّن، يعني الصبح، فخرج إلى الصلاة، وهو يقول:" اللَّهُمَّ اجْعَلْ في قَلْبي نُوراً، وفي لساني نُوراً، وَاجْعَلْ في سَمْعي نُوراً، وَاجْعَلْ في بَصَري نُوراً، وَاجْعَلْ منْ خَلْفي نُوراً، وَمنْ أمامي نُوراً، وَاجْعَلْ منْ فَوْقي نُوراً وَمنْ تَحْتي نُوراً، اللَّهُمَّ أعْطني نُوراً ". (٢٢)

فأنت تجد التكرار لكلمة (نورًا) تسع مرات في الحديث، فقد تكررت مع كل جملة من جمل الدعاء ؛ لأن عليها مدار المعنى في الحديث، فالنور هو وسيلة الخروج من الضلالات المحدقة بالإنسان، ووسيلة الوصول إلى الحق.، فكل جارحة من الجوارح تحيط بها ظلمة بطريقة من الطرق، والدعاء بطلب النور تحرير لها من هذه الظلمة المحيطة بها بما تحويه من الأخطار المحدقة بها.

ومجموع النور الذي يطلبه العبد بهذا الدعاء يستكمل النور الأعظم الذي يسير به في طريق الله حتى يرجع إلى وطنه الأول (الجنة) التي خرج منها بظلمة المعصية التي لحقت ببعض الجوارح ؛ فأوقعت أباه آدم – عليه السلام – في المعصية، والتي خرج منها بتحرير هذه الجوارح من ظلمتها بالتوبة.

وطلب النور للأعضاء عضوًا عضوًا ؛ لأن الشياطين تحيط بالجهات الست بالوساوس، فكان التخلص منها بالأنوار السادة لتلك الجهات.

قال الإمام النووي (قال العلماء سأل النور في أعضائه، وجهاته، والمراد به بيان الحق، وضياؤه، والهداية إليه، فسأل النور في جميع أعضائه، وجسمه، وتصرفاته، وتقلباته، وحالاته، وجملته في جهاته الست حتى لا يزيغ شيء منها عنه)(٢٣).

وفي الحديث من ألوان البديع براعة الاستهلال بالبداية بلفظ (اللهم)،وهو من الألفاظ المشعرة بفرط التهالك في الطلب، الذي يشرح الصدور، ويصرفها إلى علام الغيوب، وهو أمر مطلوب في هذا المقام.

كما أنه بدأ بطلب النور للقلب ؛ لأنه ملك الجوارح، وإذا أضاء فاض نوره على بقية الجوارح، وانعكس أثره عليها.

وفيه مراعاة النظير بالجمع بين الشيء، وما يناسبه، فقد جمع بين (القلب، واللسان، والسمع، والبصر)، وهي جوارح الإنسان، وطرق اتصاله بما حوله، فإذا عمها النور لم يكن ثمَّة طريق للضلالة.

كما جمع بين (خلف، وأمام، وفوق، وتحت) وهي الجهات المحيطة بالإنسان، واستغراق النور لها كاشف لما فيها من أخطار بما يجنب الوقوع فيها.

ولعل البداية بالخلف قبل الأمام في طلب النور ؛ لأن خطره مباغت مفاجئ لا يدركه الإنسان حتى يتلبس به بينما الأمام جهة النظر، واتقاء الخطر من جهته أيسر.

وكذا في البداية بالفوقية قبل التحتية ؛ لأن الخطر إذا استعلى كان أشد وقعًا، وأكثر إحاطة مما سفل.

---

(٢٢) الأذكار للنووي ص ٧٨ باب ما يقول إذا توجَّه إلى المسجد الحديث رقم (١٧١) وفي سنن أبي(أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني) داود ج: ١ ص: ١٥١/ الحديث (١٣٥٥)الناشر: دار الكتاب العربي ــ بيروت.

(٢٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي/ ج: ٦ ص: ٤٥/ الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

وقد كرر فعل الأمر الدعائي (اجعل) خمس مرات بينما تركه في جملة (وَمِنْ أمامي نُوراً) لتقدم ذكره في جملة (وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُوراً) لاتصال الجهتين، وتقابلهما، وكذا تركه في جملة (وَمِنْ تَحْتِي نُوراً) لتقدم ذكره في الجهة المقابلة في جملة (وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُوراً).

وفي الحديث تناسب ظاهر بين الألفاظ، والمعاني ؛لأن تعلق الظلمة بالجوارح يناسبه طلب النور لها، ولما كانت الظلمات داخلية، وخارجية يشق على الإنسان النجاة منها وحده استلزم طلبها ممن له القدرة وحده على ذلك، وهو الله – عز وجل –.

وفيه طباق بين الخلف، والأمام، وكذا بين الفوقية، والتحتية الأمر الذي يؤكد إحاطة النور بالعبد من جميع الجهات بحيث لا يفجئه شر، ولا تستولي عليه ظلمة.

وفيه حسن الختام بقوله (اللهم اعطني نورًا) وهو من ذكر العام بعد خاص،ليجمع ما تفرق في الحديث بتوكيد الطلب، وتجديد النداء بالتضرع،والدعاء،والتنوين في لفظ (نورًا) في جميع المواضع التي تكرر فيها للتعظيم أي نورًا عظيمًا.

ومن التكرار البديع تكرار الجمل مع عبقرية التوظيف لهذه الخاصية في مناسبة تامة للحال،والمقام، وتحقيق كمال الفائدة في قوله – صلى الله عليه، وسلم –: (ألا أعلِّمُك كلماتٍ تقُولينَها: سُبْحانَ اللَّه عَدَدَ خَلْقِه، سُبْحَانَ اللَّه عَدَدَ خَلْقِه، سُبْحَانَ اللَّه عَدَدَ خَلْقِه، سُبْحَانَ اللَّه رضَا نَفْسِه، سُبْحانَ اللَّه رضَا نَفْسِه، سُبْحَانَ اللَّه رضَا نَفْسِه، سُبْحَانَ اللَّه زِنَةَ عَرْشِه، سُبْحَانَ اللَّه زِنَةَ عَرْشِه، سُبْحَانَ اللَّه زِنَةَ عَرْشِه، سُبْحَانَ اللَّه مِدَادَ كَلماتِه، سُبْحانَ اللَّه مِدَادَ كَلماتِه، سُبْحانَ اللَّه مِدَادَ كَلماتِه ". (٢٤)

أسلوب العرض الذي بدأ به النبي –صلى الله عليه، وسلم – حديثه من عبقرية المعلم الأعظم الذي لم يحمل المخاطب قسرًا إلى أمر فيه سعة لم يفرض عليه، إضافة إلى أنه يراعي طبيعة المخاطب، ويجعله حرَّ الاختيار بعد أن يرغِّبه في الفعل

ثم إنه اتخذ التكرار وسيلة لتثبيت العبارة بلفظها، ومعناها في ذهن المخاطب الذي يسعى لتحقيق الفضل، ومن فوائد التكرار مع ما سبق أنه يملأ النفس بجلال المعنى الذي يمهله التكرار للتمعن فيه، وإجالة الفكر بما يسمح بإشراقه في الوجدان.

ولفظ (سبحان) من الألفاظ الموحية بطبيعتها ؛ لأنه لا يقال إلا في تنزيه الله – تعالى– وهو بدلالته، وارتباطه بلفظ الجلالة يغمر الوجدان بسيل من المشاعر يجلُّ عن الوصف.

هذا الفيض الروحي الذي تثيره ضوعة الطيوب المنبعثة من جلال هذه العبارة يتضوع في كل قلب، ويشرق في كل نفس على قدر صفائها، وبما كتب لها من نصيب من هذا النبع الأعظم.

وكلما تكررت العبارة كلما ارتقى التأثير درجة حتى يصقل هذا القلب بمدد رحماني إلى موعد المدد التالي، وهو على ذلك موصول حتى يلقى الله – عز وجل – فيغمره بعد علم اليقين بعين اليقين، وحقه – اللهم لا تحرم مؤمنًا.

وإذا أردت أن تدرك قيمة التعبير، وأثر التكرار كرر العبارة كما كررها حبيبك –صلى الله عليه، وسلم– :(سبحان الله عدد خلقه) وتأمل صداها في نفسك تجد أنها في كل مرة تتكرر تدرك دفقة من معناها العميق

(٢٤) الأذكار للنووي ص ٥١ باب ما جاء في فضل الذكر غير مقيد بوقت الحديث رقم (٨٤) وسنن الترمذي/ ج: ٥/ ص: ٥٥٦الحديث رقم (٣٥٥٥).

لدلالة عدد الخلق الذي يشمل قطر الماء، وذرات الرمل، وكل نسمة من جن، وإنس، وملائكة، وتلك المخلوقات الدقيقة التي لا تراها العين، والتي تراها.

والتعامل مع طبقات المعاني العظمى يحتاج إلى أن يتملاها العقل مرة بعد مرة؛ ليدرك في كل مرة أثرًا من آثارها، وبعدًا جديدًا في مداها، وهو مع كل ذلك لم يدرك من حقيقة دلالتها إلا النذر اليسير.

هكذا يحاول المؤمن الأعظم، والنبي الأكرم –صلى الله عليه، وسلم – أن يعبِّر عن شكره لربه، وهو في قرارة نفسه يدرك أن فضل ربه فوق ما يحاول، ونعمة ربه فوق ما يطاول، فيظل يكرر، ويكرر مع يقين القلب الشاكر أنه ما خرج عن دائرة التقصير – في حق تنزيه القدير –.

زد على ذلك أن التكرار في باب الذكر عبادة لله – تعالى– السعيد من يدمنها، فيحيا بها حتى تصبح سمة شخصية تحقق له المعية الإلهية حتى يلقى ربه، فيجعله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وفي الفردوس الأعلى في الجنة قريبًا حبيبًا كما كان في الدنيا، والجزاء من جنس العمل.

لم تكد النفس الذاكرة تدرك المدى الواسع لعدد الخلق في مدارج السبق إلى الجنات، ويتأمل العقل المجال الذي شقه حتى انتقل بالمعنى درجة أعمق في الدلالة على مدى الكثرة، وفرط التهالك في الثناء، فقرن التسبيح برضا النفس (سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ) بعد أن دار بالعقول في فلك المدى الحسي لعدد الخلق، والذي تحاول العقول بقدر ما أوتيت من قوة أن تبلغ مداه بكثرة التكرار لـ (سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ) ففتح لها مدى أوسع، ومجالاً لا يعلم حده إلا الله في قوله (سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ).

وهذا معنى لا يدرك مداه إلا الله في إشارة إلى أن مدى تنزيهه، وحمده لا يمكن للعبد أن يدركه، وكذا في قوله (سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ،) وكذا في قوله (سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِماتِهِ، سُبْحانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِماتِهِ، سُبْحانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِماتِهِ ") ولتقريب المعنى قليلًا من العقل نتدبر قول الله – تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لقمان ٢٧).

المبحث الثاني
من خصائص البديع النبوي: المهابة والجلال مع الحسن والجمال

كثيرًا ما يرتبط وجود ألوان البديع بكثرة في شعر شاعر، أو نثر ناثر بموضوعات تميل إلى الظرف، والتندر، وتكثر في التشبيب، والغزل، وتقل في الموضوعات الجادة كالرثاء، والفخر، والنصح، والإرشاد.

أما في البديع النبوي، فإن المهابة، والجلال مع الحسن، والجمال قرينان لا يفترقان، وهذه المهابة انسحبت عليه من جلال المعنى الوارد في ركابه، والغرض الذي حلَّ في رحابه، فكل ما خاطب به النبي – صلى الله عليه، وسلم – الأمة من الأمور العظام، والخطوب الجسام. قال الجاحظ عن كلامه –صلى الله عليه، وسلم –: (وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام...ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه) ([٢٥])

ولا تجد ذلك مطردًا في كلام الناس مهما ارتقت فصاحتهم، وارتفع بيانهم، وقويت قريحتهم، فإن أدركته في طائفة من كلامهم لم يُطَّرد لك في بقيته، وإن برعوا في التزيين، وتفننوا في التنميق، ولعبوا بالأسماع، والأفئدة على وتر من البديع، وعود.

فهذا من توفيق الله – تعالى – للنبيين، وإلهامه للمرسلين في كل وقت، وحين؛ لتبليغ ما أرسلوا به إلى الناس على اختلاف زمانهم، ومكانهم، وتفاوت أفهامهم،وقد هيأ الله نبيه –صلى الله عليه، وسلم – بكل ما يحتاجه من ملكات، ووسائل يدركها أهل البيان، أو لا يدركونها، فحلَّ من قمة البيان في أعلاها، وصار في البلاغة البشرية إلى منتهاها.

ولنعرض بعض الأحاديث التي تكشف شيئًا من هذه البلاغة، وجانبًا من جوانب الفصاحة فمن دعائه– صلى الله عليه، وسلم – في آخر وتره: " اللَّهُمَّ إني أعُوذُ برِضَاكَ منْ سَخَطِكَ، وأعُوذُ بمُعافاتِكَ منْ عُقُوبَتِكَ، وأعُوذُ بِكَ منك لا أُحْصِي ثناءً عَلَيْكَ أنْتَ كما أثْنَيْتَ على نَفْسِك ". ([٢٦])

إن حالة الخشوع، والهيبة، والجلال التي تحيط بالمصلي الذي استغرق في صلاته بكل ذرة من بدنه لا تجعل في نفس صاحبها بقية من زخارف الدنيا حتى يسعى إلى التزيين، ويرغب في التنميق لاسيما إذا كان ذلك المصلي أعرف الخلق بالحق – تعالى –.

وعلى ذلك، فكل لون بديعي ورد في إطار دعاء من أدعيته في أقصى المشرق من مغرب التكلف، والصنعة، وتلمس الزخارف القولية.

وإنما حلَّ اللون البديعي في مكانه بإلحاح من المعنى، وبمقتضى من البلاغة في أسمى معانيها عند خطاب ذي الجلال.

---

(٢٥) البيان والتبيين/المؤلف: أبي عثمان عمرو بن بحر/ ٢٢١.

(٢٦) الأذكار للنووي ص ١٢٧ باب أذكار السجود الحديث رقم (٣٢٧)وسنن أبي داود ج: ١/ ص ٥٣٧/ الحديث رقم (١٤٢٩).

وهو ما تستشعره إذا ما تأملت تركيب الحديث، وفنونَ البديع طيَّه، والتي سبقها بلفظ يدل على فرط التهالك في التضرع، والذل في مقام هذا محله وهو: (اللهم)، وقد أخذ الخشوع من قلبه، وجسده كل مأخذ، وذهب به الشعور بالجلال بين يدي ربه كل مذهب حيث كان في آخر وتره.

وقد أكَّد الكلام بأكثر من مؤكد في قوله: (اللهم إني أعوذ) من غير داع خارجي، وإنما هو تعبير يتساوق مع شعور النفس بعظم الحاجة، وشدة التعلق، وخطر الأمر ممزوج بمشاعر متأججة من الإجلال، والرهبة، والشوق، والمحبة.

ثم إنه عبِّر بالمضارع الدال على التجدد المستحضر للحدث إظهارًا للعجز، وشدة الفاقة ودلالة على تجدد العوذ كلما جدَّ حدث.

وقد أقام المعنى في الدعاء في قوله (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ برِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ...) على الطباق، فقد طابق بين الرضا، والسخط المضافين لضمير ذي الجلال الذي أعطاهما أبعادًا إيحائية بلغت في معنى كل منهما منتهاها في وجدان العبد في عياذ من الثاني: (سخط الله) بالأول: (رضا الله) كما طابق بين المعَافاة المضافة لله بما توحي به من عطايا تترى، ومنح موصولة طي السلامة من كل شر وبين (العُقُوبة) المضافة لله، والتي ارتقت بها تلك الإضافةُ قمة الهول ؛ فإن شديد العقاب إذا عاقب آلم، وأوجع فوق وهم العبقري.

ثم ترقى من الأفعال إلى مُنْشِئ الأفعال، فقال: (وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ) مشاهدة للحق، وغيبة عن الخلق، ولما كان الله – تعالى – لا ضد له، ولا ند قابله بضميره نفسه فقال: (وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ) بينما طابق في السابق بين الرضا، وضده السخط، وبين العفو، وضده العقوبة.

وقوله (لا أحصي ثناءً عليك) تكميل بلاغي أفاد الاعتراف بالعجز عن إدراك الوفاء بحق الثناء عليه.

ومن شواهد اجتماع المهابة، والجلال مع الحسن، والجمال في البديع النبوي ما جاء عَنْ خَالِد بْن الْوَلِيد، قَالَ: كُنْتُ آرَقُ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه، وسلم –: أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتُهُنَّ نِمْتَ ؟ قُلْ: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَمَا أَظَلَّتْ وَرَبَّ الأَرَضِينَ وَمَا أَقَلَّتْ وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَّتْ كُنْ لِي جَارًا مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، وأَنْ يُفْرَطَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَوْ أَنْ يُؤْذِيَنِي عَزَّ جَارُكَ وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ. (٢٧)

الحديث تَعبُّدٌ لله بالدعاء، والتضرع، وهو أمر يحبه الله من عبده، وهو علاج نفسي لحالة يتعرَّضُ لها الناس كثيرًا عند الأرق، ومجافاة النوم، والحديث توفرت فيه المهابة، والجلال مع الحسن، والجمال طي ألوان البديع بداية بلفظ نداء له هذه الخصوصية (اللهم) ثم ذكر كلمة (رب) التي تُشعر بالعناية، والقرب، والتربية وهو ما يحتاجه الأرقُ المُتعَب.

ثم هذا التوازن الصوتي في ترصيع الجمل (رَبَّ السَّمَاوَاتِ، وَمَا أَظَلَّتْ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ، وَمَا أَقَلَّتْ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ، وَمَا أَضَلَّتْ) يرافقه سجع رقيق نتج عن ختام كل جملة باللام والتاء الساكنة كأنها تروض النفس على السكون.

(٢٧) الأذكار للنووي ص ١٨٩ باب ما يقول إذا قلق الحديث رقم (٥٣٤) وينظر المعجم الكبير للطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني) ج: ٤/ ص: ١١٥/ الحديث رقم (٣٨٤٠) تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي/ الناشر: مكتبة العلوم والحكم – الموصل/ الطبعة الثانية، ١٤٠٤ ه – ١٩٨٣م.

أكده بما ليس فوقه مطمح لبليغ بالجناس الذي ترافق في السمع مع الوظيفة الصوتية مع ما سبقه من ألوان، وهذا الجناس الناقص بين الكلمات (أظلت – أقلت – أضلت) وكذا بين كلمتي (الأرضين – الشياطين).

هذا النغم العجيب الذي هَدهَد الخاطر، وربَّت على الوجدان المضطرب، والنفس القلقة صدر طبعيًا لا تكلف فيه يدل على ذلك أن أي محاولة لتغيير كلمة بمرادف لها يُنقص من دلالة المعنى، ويذهب برونق الأسلوب.

إضافة إلى ما بين السماوات، والأرضين من طباق يؤكد معنى إحاطة الله تعالى بكل شيء.

والجمع بين هذه الكلمات من التناسب لاجتماعها في كونها مخلوقات لله –تعالى – له تمام ملكها، وتصريفها على عظمها.

ولمَّا أقر العبد بأن الله – تعالى – رب هذه الكائنات العظيمة، ومالكها، ومصرِّفها طلب منه جواره حيث إن تمام الفائدة من الجوار هي تحقيق الأمن للخائف، والسكون للمضطرب والراحة للمتعب تتحقق بقدر قوة المُجير.

ومن شواهد اجتماع المهابة، والجلال مع الحسن، والجمال في البديع النبوي ما جاء في سنن أبي داود، عن أبي سعيد الخدري – رضي اللّه عنه–أن رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم – قال: " مَنْ قالَ رَضيتُ باللّه رَبّاً، وبالإسلام ديناً، وبمُحَمَّد –صلى الله عليه، وسلم– رَسُولاً وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ " (٢٨) وتبدو المهابة، والجلال في ألفاظ الحديث: (الله – الرب – الإسلام – محمد – الرسول– الجنة) والتي تناسبت مع معانيه،فهذه الألفاظ تجتمع في كونها تتصل بالعقيدة، والعبادة وهي تتصل فيما بينها في بناء عقيدة المسلم.

أضف إلى ذلك سلاسة الألفاظ، وخفتها مع كونها من الألفاظ الموحية بطبيعتها، فلفظ الجلالة (الله) تجد كل ما شئت فيه من مشاعر الجلال، والكمال، ثم إن إشعاعه في كل قلب بقدر.

ولفظ الرب الذي يوحي بالعناية، والقرب، والحفظ، وغيرها من هالة الدلالة حول اللفظ، وكلمة (الإسلام) التي ترسخ الخضوع، وتذلل النفوس لتشريع ربها، وكأنها تروضها على قبول ما يتضمن من التشريعات.

ولفظ (محمد) –صلى الله عليه، وسلم – لفظ حبيب يصور في الوجدان صورة الكمال عندما تسكن في جنبات النفس صورة الكمال البشري التي وسعها شخصه –صلى الله عليه، وسلم – مع دلالة الكلمة التي تقرر استحقاقه للمحامد.

ودلالة لفظ الرسول المرتبط بالاسم الحبيب، والتي ترشد إلى وجوب الإتباع، ولزوم الطاعة في الأمر، والنهي.

ثم إن الجزاء من جنس العمل لما كانت البداية بالرضا من العبد خضوعًا، واستسلامًا لأمر ربه كانت النهاية مطلق الرضا إسعادًا، وإكرامًا من ربه في دار الرضوان في الجنان.

كما أن هذا التنوين الذي ارتبط بأواخر الكلمات (ربًا – دينًا – رسولًا) وثق الصلة المعنوية لدلالة الكلمات بجرس الكلمات، وموسيقاها الرقيق التي تترك صداها في السمع يتردد متساوقا مع دلالتها في

(٢٨) الأذكار النووية ص ٥٤/ باب ما جاء في فضل الذكر غير مقيد بوقت الحديث: (٩٧) وسنن أبي داود/ ج: ٤/ ٤٧٦/ الحديث رقم (٥٠٧٠).

القلب،وبذلك يجتمع جلال المعنى مع جمال اللفظ، لتبرز خصيصة اجتماع الهيبة، والجلال مع الحسن، والجمال جلية واضحة في مجمل حديثه –صلى الله عليه، وسلم – وفي بديعه خاصة.

ومن جمال البديع، وحسنه ما ورد عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه–،عن النبيّ – صلى الله عليه، وسلم – أنه كان يقول إذا أصبح: " اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنا، وَبِكَ أَمْسَيْنا، وَبِكَ نَحْيا، وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ النُّشُورُ؛ وإذا أمسى قال: اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنا، وَبِكَ نَحْيا، وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ النُّشُورُ" (٢٩)

ألفاظ الحديث سلسة متحدرة على اللسان مقبولة في الأسماع،واضحةفي الأفهام، مؤثرة في الوجدان لا تجد فيها تنافرًا، ولا ثقلًا، ولا غرابة، وقد ضمت من ألوان البديع ما يحقق جمال اللفظ، ويسر الحفظ، ووضوح المعنى إضافة إلى الإمتاع النفسي الذي نتج عن براعة التراكيب البديعية خاصة، والبلاغية عامة، وهذا أقصى ما يسعى إليه بليغ ببيانه.

والحديث يشير إلى ذكر من الأذكار التي اعتادها الرسول –صلى الله عليه، وسلم – في الصباح، والمساء، دلَّ على ذلك قول الراوي (كان يقول)، لأن فعل الكينونة الماضي يشير إلى العادة غالبًا.

والفعل المضارع: (يقول) يدل على تجدد الفعل بتجدد كل صباح، ومساء، كما يؤكده أسلوب الشرط في قوله: (إذا أصبح) وجواب الشرط محذوف دلَّعليه المذكور تقديره: يقول اللهم بك...) وأسلوب الشرط يربط الإمساء،والإصباح بقول هذه الكلمات،وبداية الدعاء بصيغة النداء (اللهم) توجُّه لله بقلب مخلص خاشع لله – تعالى –وهو من براعة الاستهلال التي تستفتح بما له فضل تأثير على القلب والوجدان، ويتناسب مع طبيعة المعنى الذي يسوقه.

والمطابقة بين أصبحنا،وأمسينا تؤكد المعنى، وتشير إلى أن الله – عز وجل – هو المتصرف فيهما يقلِّب الزمان بالإنسان، وكل نعمة فيهما هي من عطائه.

والطباق بين نحيا،ونموت يشير إلى طلاقة قدرته في القبض، والإرسال، وهذا المعنى يوحي بالخضوع،والذل له، والإقرار بكامل التصرف، والدعاء صيغة مزدوجة للصباح،والمساء.، وقوله (وإليك النشور)تذييل (٣٠)بديع في تمام المناسبة ؛ لأن النشور من نشر الميت إذا أحياه، والنوم أخو الموت فالإيقاظ منه كالإحياء بعد الإماتة.

(٢٩) الأذكار النووية ص ٧٧/ باب ما جاء في فضل الذكر غير مقيد بوقت الحديث: (٢٠٨) وسنن الترمذي/ ج: ٥/ ٤٦٥/ الحديث رقم (٣٣٩٠).

(٣٠)التذييل هو أن يذيل الناظم أو الناثر كلاما بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيدا وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق، والفرق بينه وبين التكميل أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال، والتذييل لم يفد غير تحقيق الكلام الأول وتوكيده)(خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي (تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري) ج: ١ ص٢٤٢/ تحقيق: عصام شعيتو/ الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت/ الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

المبحث الثالث
من خصائص البديع النبوي (اتساق الألوان البديعية مع مساحة المعنى)

من مميزات البديع في أحاديث النبي –صلى الله عليه، وسلم – أن ألوان البديع وردت منثورة في مساحة المعنى بطريقة عبقرية حققت الإمتاع النفسي، والسبق البياني، وبرز المعنى خلالها في مَعرضٍ دانٍ تساوى في فهمه المخاطبون على تفاوت ما بينهم في درجات الفهم.

وما سبق من الشواهد النبوية يؤكد ذلك، وما لحقه كذلك، ولتقريب الفكرة نستعرض قول النبي – صلى الله عليه، وسلم – في حديث عَنْ أبي أمَامَةَ أوْ عَنْ بَعْض أصْحَاب النَّبيِّ –صلى الله عليه وسلم– أنَّ بِلَالًا – رضي الله عنه – أخَذَ في الْإقامَة، فلمَّا أنْ قالَ: قدْ قامَتْ الصَّلَاةُ قالَ النَّبيُّ – صلى الله عليه، وسلم –: « أقامَهَا اللَّهُ وَأدَامَهَا ». (٣١)

نجد الجناس الناقص يحمل العبارة بخفة النغم، وجميل الجرس، ويزفها في السمع لتنفرج لها أسارير الوجدان، ويسكن معناها في عمق الوجدان.

كما لا يخفى التناسب بين اللفظتين، ومعناهما؛فالإقامة تتضمن معاني الحفظ، والإعانة للعباد على الأداء، وتقويم ما يقع منهم من عوج فيها، والإدامة تفيد الاستمرار في أدائها إلى منتهى العمر، وارتباط اللفظتين بالله واضح؛ لأنه الأوحد الذي يضمن ذلك للعبد بمدِّه بالإيمان اللازم لأدائها على الوجه المطلوب، والعلم، والإخلاص، وبمده بالقوة اللازمة للقيام بما يلزمها من حركة، وسعي، وجهد.

والمقام يتناسب مع هذه الألوان البديعية؛ لأنه وقت الدخول في الصلاة، والمعنى الذي يقرره الحديث لا يتطلب أكثر من هذه الألوان التي وردت فيه في تناسق بديع، وأسلوب رقيق.

ومن تناسب الألوان البديعية مع مساحة المعنى ما جاء عن صُهيب – رضي اللّه عنه –:أن رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم – كان يحرّك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء، فقلت: يارسول اللّه ! ما هذا الذي تقول ؟ قال: " اللَّهُمَّ بِكَ أحاولُ، وَبِكَ أصَاولُ، وَبِكَ أقاتِلُ ". (٣٢)

واللون البديعي في البيان النبوي يجرى مع المعنى حيث جرى ما دام المعنى يطلبه، ومتى تركه المعنى، فإنه لا يتكلف استحضاره، ولا يلوي المعنى من أجله، فقوله في الحديث (اللَّهُمَّ بِكَ أحاولُ، وَبِكَ أصَاولُ، وَبِكَ أقاتِلُ) تجد الجناس الناقص البديع جاء في ركاب المعنى بين كلمة (أحاول)، وبين كلمة (أصاول) وقد تركه في الكلمة الثالثة التي تليهما (أقاتل) حيث لم يتطلبه المعنى.

بينما انتظم السجع الجمل الثلاث التي ختمت جميعًا بحرف اللام المضموم، وفيه تصريع تتوازن فيه الجمل، ويجري معها اللسان على نسق بديع يترافق مع الجناس في الأوليين، ومع السجع فيها جميعا ؛ ليحدث جمالًا طبعيًا يخلب اللبَّ، ويوجب الحب.

---

(٣١) الأذكار النووية ص ٩٠/ باب ما يقول إذا سمع المؤذن والمقيم – الحديث: (٢٢٠) وسنن أبي داود/ ج: ١/ ٢٠٨/ الحديث رقم (٥٢٨).

(٣٢) الأذكار النووية ص ١٥٦/ باب الحث على ذكر الله بعد صلاة الصبح – الحديث: (٤٢٥) وفي صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي) ج: ١١/ص: ٧٢/ الحديث رقم (٤٧٥٨) تحقيق: شعيب الأرنؤوط/ الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت/ الطبعة الثانية، ١٤١٤ ه – ١٩٩٣م.

والحديث على قصره جامع لكل ما يحتاجه المؤمن في الاستعاذة، وفيه تفويض لله في أمور العبد من كل وجه يوحي باستشعار المؤمن لشدة ضعفه، وشدة حاجته لربه.

كما أن فيه تحذيرًا لعدو الإنسان الأعظم، وهو الشيطان بأنه قد استعاذ بنعم المعيذ الذي لا يملك معه عدوه حولًا، ولا طولًا لضره.

ومن اتساق الألوان البديعية مع مساحة المعنى ما جاء عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ ». أَرَاهُ قَالَ « بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِى لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ ».(٣٣)

الحديث يبيِّن فضل الدفع عن المؤمن، ويحذر من الغيبة، أو السكوت عليها، وقد سار المعنى في الألفاظ سريانا رقيقًا دقيقًا وردت فيه الألوان البديعية كغيرها من الألوان البلاغية في المواضع التي بُني عليها المعنى في الحديث.

فنجد الطباق بين المؤمن، والمنافق والذي يصور الصراع الأبدي في القلوب والذي ينعكس على الجوارح ؛ فيظهر من المنافق في شكل الغيبة التي تكشف الحسد والحقد والكراهية للمؤمن، ويظهر من المؤمن في صورة الدفع عن أخيه المؤمن، وتعديل الصورة التي شوَّهها المنافق بلسانه بينما صاحبها المؤمن في غفلة، وسلامة صدر كحال أكثر المؤمنين.

وقبل هذا الطباق طابق بين الفعل (حمى)، والفعل (رمى)، وهما نتيجة ما في القلوب فالمؤمن ينفع، ولا يضر، والمنافق يضر، ولا ينفع، ونتيجة الإيمان في القلب تظهر في العمل ؛ لأن الإيمان محله القلب، لا يطَّلع عليه إلا الله، والأفعال تترجمه، وكذا الحال في خفاء النفاق، وظهور نتيجته في صورة أعمال خبيثة.

وبين الفعلين جناس ناقص بديع حيث اتفقا في حرفين كما اتفقا في الوزن، وزمن الفعل، وهو ما حقق نغمًا جميلًا وصل بينهما في السمع، وزادهما تأكيدًا في المعنى.

وكذا الجناس بين (يحمي)، و (لحمه) وهو ما أدى إلى اتصال الصورة السمعية لجمل الحديث بتواصل النغم الذي يجذب السمع من ناحية اللفظ، وينشط العقل من ناحية المعنى الذي يخاتل العقل حيث يظن بادي الأمر أنه تكرار للفظ الأول، فإذا هو أمام دلالة مختلفة، فيقع في النفس موقعًا حسنًا يزيده رسوخًا.

وبين (المؤمن) و(المسلم) تناسب من حيث إن الأول يتعلق بالباطن، والثاني يتعلق بالظاهر، فهما كالقلب، والجسد في اتصال بعضهما ببعض.

وبين (المؤمن)، و(المنافق) مناسبة من حيث اجتماعهما في المخيلة، فلضد أقرب حضورًا عند ذكر ضده.

وألفاظ (المؤمن – المسلم – المنافق) بينها تناسب من حيث إنها جميعًا من الألفاظ ذات الدلالة الواردة في الشرع.

(٣٣) الأذكار النووية ص ٥٤٧/ باب أمر من سمع غيبة شيخه أو صاحبه أو غيرهما أن يرده ويبطلها – الحديث: (١٧٤٧) وسنن أبي داود ج: ٤/ ص: ٤٢٢/ الحديث (٤٨٨٥).

وقوله (يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ) احتراس بليغ يؤكد إحاطة النبي بطبيعة من يوجههم، ويرشدهم، لأن قوله (يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ) يقرر أن النية معقودة للإيذاء، والإهانة، فيخرج من وقع منه الرمي دون قصد، أو على سبيل الزجر له.

والتعبير بالرمي عن القذف استعارة بديعة تصور قوة الأثر الناتج عن هذا القول بصور حسية لأن الرمي يكون بالشيء الصلب، وهو شديد الإيذاء.

والجمع بين الألفاظ (رمى – شين – حبس) من مراعاة النظير، وهو الجمع بين الشيء، وما يناسبه ؛ لأنها تتفق في دلالتها على الضرر، والإيذاء.

والمتأمل لما ذكرنا من ألوان البديع، وما فاتنا في هذا الحديث يجد أن هذه الألوان تنوعت، وتفرقت في الكلام بحسب ما يأتي بالمعنى في قمة الوفاء، واللفظ في قمة الجمال الذي يختل إذا زُحزح فيه لون عن موضعه مما يدل على تمكن كل لونٍ من الموضع الذي وُلد فيه.

ومن ذلك ما روى عن أمِّ سلمة رضي اللّه عنها، واسمها هند: أن النبيّ – صلى الله عليه، وسلم – كان إذا خرج من بيته قال: " باسْمِ اللَّه تَوَكَّلْتُ على اللَّه، اللَّهُمَّ إني أعُوذُ بكَ أنْ أضلَّ أوْ أُضَلَّ، أوْ أزلَّ أوْ أزَلَّ، أوْ أظْلِمَ أوْ أظْلَمَ، أوْ أجْهَلَ أوْ يُجْهَلَ عليَّ " (٣٤)

اللون البديعي الغالب في هذا الحديث هو الطباق الذي بُني عليه المعنى في الحديث،ليشمل حالتي الإنسان اللتين يتقلب بينهما،فحقق الحديث شمولهما حتى يحقق السلام النفسي للعبد في الدنيا، والآخرة،ومع انتظام الطباق لغالب الحديث إلا أنه جاء موزعًا بدقة على مساحة المعنى التي استدعت هذا اللون خاصة.

فقوله (أزل) يتضمن معنى العزة، والغلبة، وهو ضد قوله: (أزل)، وكذلك قوله (أظلم) الذي يتضمن معنى القوة، وقهر الغير، وبين قوله:(أظلم) الذي يوحي بالضعف، والعجز، وكذا بين قوله:(أجهل، أو يجهل علي) وهذا الطباق يتضمن طلب الحماية من طغيان غيرهعليه،ومن طغيان نفسه على غيره ؛ لأنه قد يكون أشد خطرًا من أذى غيرهله، لأن أذى غيره له في الدنيا أما عدوانه هو على غيره، فإنه يعرضه للقصاص في الآخرة.

قال الطيبي الزلة السيئة بلا قصد استعاذ من أن يصدر عنه ذنب بغير قصد، أو قصد، ومن أن يظلم الناس في المعاملات،أو يؤذيهم في المخالطات، أو يجهل أي يفعل بالناس فعل الجهال من الإيذاء) (٣٥).

وبين هذه المعاني التي جمع بينها في الحديث تناسب في المعاني، والألفاظ.

ولا ننسى تكرار لفظ الجلالة في بداية الحديث بالاسم الصريح، وبضميره مرات في إشارة إلى أنها أمور عظيمة تحتاج إلى عون الله – عز وجل – وكل أمر كذلك – إضافة إلى تعميق الشعور بالحاجة، وإظهار الضعف والمسكنة، وهي أمور من صميم العبادة يحبها الله من العبد،ويجزيه بها.

---

(٣٤) الأذكار النووية ص ٦٢/ باب ما يقول إذا حال خروجه من بيته – الحديث: (١٢٦)وسنن أبي داود ج: ٤/ ص: ٤٨٦/ الحديث (٥٠٩٦).

(٣٥) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا جـ ٩/ ص ٢٧٢ / دار الكتب العلمية – بيروت.

وإذا نظرنا نظرة شاملة لهذه الألوان البديعية في الحديث نجد أنها في تمام التناسب في التعبير عن المعنى، وعن مساحته حيث توازن اللون البديعي، واتسق مع الدلالة التي يؤديها دون أن يبدو ضائقًا بمعناه، أو زائدًا عنه.

ومنه ما جاء عن أبي سعيد الخدريّ – رضي اللّه عنه – واسمه سعد بن مالك بن سنان: أن النبيّ – صلى الله عليه، وسلم – كان إذا لبس ثوباً سمَّاهُ قميصاً أو رداء أو عمامة يقول: " اللَّهُمَّ إني أسألُكَ منْ خَيْره وَخَيْر ما هُوَلَهُ، وأعُوذُ بكَ منْ شَرّه وَشَرّ ما هُوَ لَه ". (٣٦)

وقد قام هذا الدعاء على أسلوب المقابلة الذي يشتمل على طلب الاستعانة، والاستعاذة حيث قابل بين طلب الخير في الملبوس نفسه،وفيما يُلبس له من منافع مشروعة، وإظهار لنعمة الله على سبيل الشكر له، وبين الاستعاذة من الشر في الملبوس نفسه مما يمكن أن يحمله، وفيما يُلبس له من إظهار الكبر، والعجب، والرياء.

فقد وقعت المقابلة بين أكثر من شيء حيث قابل بين الطلب، والاستعاذة، وبين خيره، وشره، وبين خير ما هو له، وشر ما هو له.

وهذه المقابلة في الدعاء هي صلب المعنى الذي يقرره الحديث، ولا يصلح أي أسلوب سواه لتقرير المعنى بتلك الفصاحة، والوجازة، والوضوح.

لأن من سمات المقابلة شدة وضوح المعاني لما هو معلوم من أن الضد أكثر وضوحًا في وجود ضده،ولم يتطلب المعنى أكثر من هذا اللون لتقريره،فجاء وافيًا في مساحة المعنى دون زيادة،ولا نقصان في قمة الوضوح، والبيان.

المبحث الرابع:

العذوبة في اللفظ، والجمال في السمع واليسر في الفهم.

قلنا سابقًا أن وجود بعض الخصائص التي تحدثنا عنها في البديع النبوي في غيره من كلام الناس أمر ممكن، وكونه خصيصة في البديع النبوي يأتي من اطراده، وكثرته في حديثه دون غيره، ومن تلك الخصائص العذوبة في اللفظ، والجمال في السمع، واليسر في الفهم، وهذه العناصر لا تتأتى لبليغ مطردة مهما أوتي من فصاحة، فالمعلوم في كلام الفصحاء اختلاف طبقات الكلام بين الوضوح، والخفاء، وعذوبة اللفظ، وخشونته، وقبوله في السمع، ورفضه، وهو ما لا تجده في البيان النبوي على كثرته، وإنما تجد العذوبة في اللفظ، والجمال في السمع قرينة اليسر في الفهم، وهذه العناصر سارية في مجمل بديعه –صلى الله عليه، وسلم – دون تكلف أو استكراه، أو استغلاق لمعنى، أو نبولِلفظ.

عن ابن عمر رضي اللّه عنهما» قال:كان رسول اللّه– صلى الله عليه، وسلم – إذا خرج من الخلاء قال: «الحَمْدُ للَّه الَّذي أذاقني لذَّتَهُ، وأبْقى فيَّ قُوَّتَهُ، وَدَفَعَ عَنِّي أذاهُ» (٣٧).

(٣٦) الأذكار النووية ص ٥٨/ باب ما يقول إذا لبس ثوبًا جديدًا أو نعلًا أو ما أشبهه – الحديث: (١١٣) وسنن أبي داود ج: ٤/ ص: ٧٤/ الحديث (٤٠٢٢).

(٣٧) الأذكار النووية ص ٧٠/ باب ما يقول إذا خرج من الخلاء – الحديث: (١٥١) وفي كتاب الدعاء للطبراني (سليمان بن أحمد الطبراني) ج: ١/ ص: ١٣٦/ الحديث: (٣٧٠)/ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا/ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/ الطبعة الأولى، ١٤١٣ه.

الحديث يقرر ذكرًا يتضمن شكراً مستحقًا على العبد، وينوه ببعض أسباب هذا الشكر برزق العبد بالطعام، ثم تحقق جملة من نعم الله عليه بالتلذذ بأكله، والتقوي به، ثم تخليصه مما يؤذيه منه.

وقد صاغ النبي –صلى الله عليه، وسلم – المعنى بطريقة طبعية في قمة الدقة، والتناسب، والجمال مع يسر الفهم، وتناسب المعنى مع مختلف الأفهام، فالسجع البديع في جمل الحديث (أَذَاقَنِي لَذَّتَهُ،، وأَبْقَى فِيَّ قُوَّتَهُ، وَدَفَعَ عَنِّي أَذَاهُ) يتهادى بالمعنى في كمال الرقة، وتمام الدقة إلى سمع السامع، وقلبه، فلا يزال يتردد بينهما طربًا حتى يقر المعنى قرارًا بحيث لا يذهب عنه، وتلك غاية مطلوبة في أحاديث الذكر أن تُحفظ، وتُكرر بعد أن تُقرر.

زادها جمالًا باتفاقها في زمن الفعل الماضي الدال على التحقق بسبق الوقوع في الزمن.

كما أنه أبدع في التركيب بما ليس فوقه مطمح لبليغ حين أورد الجار والمجرور متعلقًا بالفعلين الأخيرين (وأَبْقَى فِيَّ قُوَّتَهُ، وَدَفَعَ عَنِّي أَذَاهُ) بينما لم يتعلق بالفعل الأول (أَذَاقَنِي لَذَّتَهُ) شيء ليؤكد حصول اللذة، وانتفاعه بها في الأول، أما الفعل الثاني (أبقى)،فإن تعلق الجار، والمجرور به يدل على إحاطة الجسم بكامل منفعة الطعام، وكذا في تعلق الجار، والمجرور بالفعل (دفع) الذي يؤكد انفصال، وتباعد المدفوع،وهو الأذى الذي قرره بالفعل (دفع).

وما أجمل هذا التناسب البديع بين الألفاظ، والمعاني في جمل الحديث حيث عبر بالإذاقة مع اللذة، والإبقاء مع القوة، والدفع مع الأذى ؛ ليصدر الحديث في قمة الجمال في السمع، وقمة الدقة في الأداء.

فإن حاولمحاول تغيير لفظ بمرادفه لهوت به سماء البيان إلى هاوية النسيان مع أساليب العامة التي لا تطمح من العبارة إلا بتوصيل أصل المعنى.

فلو أبدل – مثلًا – (أذاقني) بـ(أطعمني) لما ناسب اللذة، ولما صلح للمعنى الذي يشير إلى مباشرة اللذة، وتحقق المتعة ؛ فما كل من طعم طعامًا وجد له لذة، واستمتع بذوقه.

وكذا في لفظ اللذة الذي انسجم مع التذوق، فلو أبدل بمرادف له كالنعمة،أو الشهوة، أو الحلاوة لما أدى مؤداه، أوسد مسده ؛ لأن (اللذة إدراك الملائم من حيث إنه ملائم كطعم الحلاوة عند حاسة الذوق والنور عند البصر، وحضور المرجو عند القوة الوهمية، والأمور الماضية عند القوة الحافظة تلتذ بتذكرها، وقيد الحيثية للاحتراز عن إدراك الملائم لا من حيث ملاءمته،فإنه ليس بلذة كالدواء النافع المر، فإنه ملائم من حيث إنه نافع، فيكون لذة لا من حيث إنه مر (٣٨)

والفرق بين اللذة، والنعمة: أن اللذة لا تكون إلا مشتهاة، ويجوز أن تكون نعمة لا تشتهي كالتكليف، وإنما صار التكليف نعمة ؛ لأنه يعود عليها بمنافع، وملاذ ؛ وإنما سمي ذلك نعمة لأنه سبب للنعمة. (٣٩)

والفرق بين الشهوة، واللذة: أن الشهوة توقان النفس إلى ما يلذ، ويسر، واللذة ما تاقت النفس إليه، ونازعت إلى نيله، فالفرق بينهما ظاهر. (٤٠)

---

(٣٨) التعريفات المؤلف: علي بن محمد بن علي الجرجاني ص ٢٤٥/ تحقيق: إبراهيم الأبياري/ الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ.

(٣٩) الفروق اللغوية: ص ٤٦٣.

(٤٠) الفروق اللغوية:ص ٣٠٦.

والفرق بين اللذة، والحلاوة واضح حيث إن لفظ اللذة شامل لكل ما تلتذ به النفس من الحلو، وغيره فاللذة أشمل،، وأكمل للسياق.

وما أجمل المقابلة البديعة في قوله (وأبْقى فِيَّ قُوَّتَهُ، وَدَفَعَ عَنِّي أذاهُ) حيث قابل بين أبقى، ودفع، وهما فعلان في نفس الزمن الدال على التحقق بسبق الوقوع في الزمن الماضي، وقابل بين الاسمين (قوته)، و (أذاه)، ومع تقابل الفعلين، والاسمين لكن هذا التقابل أكدَّ تمام الإفادة من النعمة بتأكيد بقاء ما ينفع، وذهاب ما يضر، فصارت نفعًا محضًا

وكذا التقابل بين حرفي الجر، وما اتصل بهما (فيَّ) الذي يفيد الظرفية و(عنّي) الذي يفيد الطرح، والإبعاد للفصل بين النافع، والضار.

ومن العذوبة في اللفظ، والجمال في السمع، واليسر في الفهمما جاء عن أبي كثير مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: عَلَّمني النبيُّ- عليه السلام- أن أقولَ عندَ أذان المغرب: " اللهم هذا إقبالُ ليلكَ، وإدبار نَهَارِكَ، وأصواتُ دُعاتكَ، فاغفر لي "([41])

التوازن الصوتي في الجمل الثلاثة (إقبالُ ليلكَ، وإدبار نَهَارِكَ، وأصواتُ دُعاتكَ) ترافق في السمع بالنغم الرقيق الذي يجذبه مع سجع الجمل، فأحكم الصلة بينها بحيث صارت قطعة فنية واحدة تقر في الوجدان بواضح البيان مع جريانها على اللسان عذبة سهلة لا يجد عناءً في تكرارها، ولا تملُّ الأذن سماعها.

أضف إلى جمال العبارة هذا الطباق بين الليل، والنهار الذي يؤكد معنى التعاقب بينهما بالطباق الأول بين الإقبال والإدبار زاد العبارة حسنًا بالطباق بين فعل، وفعل أولًا،ثم اسم، واسم ثانيًا.

وإضافة الليل، والنهار، وأصوات الدعاة لله – تعالى – عامل نفسي يشعر العبد بقرب ربه حين يناجيه، وهو ما يزيد من يقينه بإجابة دعوته.

قال العيني:(أضاف هذه الأشياء إلى اللّه – تعالى- وإن كانت جميع الأشياء للّه -تعالى- لإظهار فضيلة هذه الأشياء ؛لأن المضاف يكتسي الفضيلة، والشرف من المضاف إليه كما في " ناقة اللّه "، وإنما حثّ بالدعاء في هذا الوقت ؛لأن هذا الوقت وقت شريف باعتبار أنه آخر النهار، وهو وقت ارتفاع الأعمال، وأول الليل، وهما آيتان من آيات اللّه الدالة على وحدانيته، وبقائه، وقدمه، وأنه وقت حضور العبادة، فيكون أقرب إلى الإجابة.([42])

(٤١) الأذكار للنووي ص: ١٧٣ باب ما يقول إذا سمع أذان المغرب الحديث رقم (٤٨)وفي كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (المتوفى: ٩٧٥هـ) ج: ٢/ ص: ١٧٥/ الحديث (٣٥٦٠) المحقق: بكري حياني – صفوة السقا/ الناشر: مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الطبعة الخامسة،١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٤٢) شرح سنن أبي داود لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ) ج: ٢/ ص: ٤٩٥/ المحقق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري/الناشر: مكتبة الرشد – الرياض/ الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ -١٩٩٩ م.

ومن العذوبة في اللفظ، والجمال في السمع، واليسر في الفهمما جاء عن أبي هريرة»:أن رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم – كان يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ذَنْبي كُلَّهُ، دقَّهُ وَجلَّهُ وأوّلَهُ وآخرَهُ وَعَلانيَتَهُ وَسرَّه» . (٤٣)

وجمال التعبير ليس بخافٍ على سامع، ولا قارئ، فمع خلوه من عيوب الكلمة، والكلام تضمن تناسبًا للألفاظ مع المعاني مع تتابع الطباق بين الكلمات الستة، فقد قابل بين دقه، وجله، وبين أوله، وآخره، وبين سره وعلانيته ليستغرق كل أنواع الذنوب التي يمكن أن يلمَّ بها عبد من عباد الله، وهذا من حسن التقسيم، وهو لون آخر من البديع،وسماه أبو هلال العسكري صحة التقسيم قال: (التقسيم الصحيح أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه التقسيم ولا يخرج منها جنس من أجناسه)(٤٤)وقد جاءت أشكال الذنب التي يمكن أن تصدر من الإنسان مستوفاة في الحديثمن ناحية الحجم (دقه، وجله)، ومن ناحية الزمن البداية، والنهاية (أوله، وآخره)، ومن ناحية الملابسات التي تحيط به (السر، والعلانية)، وعلى ذلك لم يخرج ذنب عن حيز استغفاره – صلى الله عليه وسلم –.

ومثله ما جاء عن عليّ رضي اللّه عنه قال:كان رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم – إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهّد والتسليم: " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قدَّمْتُ وَمَا أخَّرْتُ، وَمَا أسْرَرْتُ وَمَا أعْلَنْتُ، وَمَا أسْرَفْتُ وَمَا أنْتَ أعْلَمُ بِهِ منِّي، أنْتَ المُقدِّمُ وأنْتَ المُؤَخِّرُ لا إلَهَ إلاَّ أنْتَ ". (٤٥)

وقد قام المعنى في الدعاء الوارد في هذا الحديث على أسلوب المطابقة التي تستغرق كل ذنوب العبد، وتؤكد على إحاطة الله بذنوب عبده،وبكل خلقه، فقد قابل بين قوله:(قدَّمْتُ، وأخَّرْتُ)ليستغرق الزمان بالمغفرة، وبين (أسْرَرْتُ وأعْلَنْتُ) ليستغرق الظاهر،والباطن، وهو استغراق للمكان، لأن الذنب إما أن يقع في مكان ظاهر للعيان، أو في مكان خفي عن الناس، والدعاء يحيط الاثنين بالمغفرة.

كما طابق بين وصفه (بالْمُقدِّمُ) و(المُؤَخِّرُ) دلالة على أنه المنزل للأشياء منازلها، يقدم ما شاء من مخلوقاته ويؤخر،وقدم من شاء من عباده بتوفيقه، وأخَّرَ من شاء بخذلانه.

وفي قوله (وما أنت أعلم به مني) تتميم بلاغي أي: تعلمه، ولا أعلمه من المعاصي، والسيئات، والتقصير في الطاعة، وهو تعميم بعد تخصيص، وتتميم لما يستغفر منه. ثم ذيَّل الحديث بكلمة

(٤٣) الأذكار للنووي ص: ١٢٨ باب أذكار السجود الحديث رقم (٣٣٠) وفي صحيح ابن خزيمة (محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري) ج: ١/ ص: ٣٣٥/ الحديث: (٦٧٢)/ تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي/ الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، ١٣٩٠ه– ١٩٧٠م.

(٤٤)الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري) ص: ٣٤١/ تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ الناشر المكتبة العصرية/ بيروت – ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م. وفي مفتاح العلوم للسكاكي/ ٤٢٥/ ت: نعيم زرزور/ طبعة دار الكتب العلمية – بيروت/ الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م.
شعر زهير بن أبي سلمى/ ١٣٨.

(٤٥) الأذكار للنووي ص: ١٤٦ باب الدعاء بعد التشهد الحديث رقم (٣٨٧) وفي السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي
(أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي) مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني/ ج: ٢/ ص: ١٨٥/الحديث رقم: (٣١٣٨)/ الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد/الطبعة: الطبعة: الأولى ــ ١٣٤٤ هـ.

التوحيد إعلانًا لتفرده بكل شيء بما فيه المغفرة (لا إلهَ إلاَّ أنْتَ) أي يغفر الذنوب، ويقبل الأعمال، ولما لهذه الكلمة من أثر عظيم في قبول الأعمال، ومغفرة الذنوب.

ومن ذلك ما جاء عن أنس رضي اللّه عنه» قال: كان النبي –صلى الله عليه، وسلم – يقول إذا انصرف من الصلاة: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ عُمُرِي آخِرَهُ، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ، وَاجْعَلْ خَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ أَلْقَاكَ» (٤٦).

لا يخفى جمال اللفظ، وقبوله في السمع، ويسر معناه في العقل؛ فالجناس البديع الناقص بين قوله (عمري) و(عملي) يداعب العقل بسبب تشابه اللفظين، ثم يفجئه باختلاف المعنيين؛ فيتحقق الفرق بين الدلالتين، ويتأكد في العقل بعد أن دفع للفكر ونفض عنه غبار الغفلة.

إضافة إلى السجع في الجمل،والذي بعث نغمًا عذبًا تطرب له الأسماع في تلقيها للمعنى.

وفي الحديث انسجام، وهو تحدر الألفاظ على اللسان كتحدر الماء لخلو الكلمات من عيوب الكلمة، وخلو الجمل من عيوب الكلام.

والتناسب الدقيق بين الألفاظ، والمعاني حيث عبر بالآخر مع العمر، والخواتم مع العمل، واللقاء مع الأيام.

ومن ذلك ما جاء عن أبي بكرة رضي اللّه عنه» : أن رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم – كان يقول في دُبر الصلاة: «اللَّهُمَّ إِنِي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ وَالفَقْرِ وَعَذَابِ القَبْرِ» .(٤٧)

استعاذةالرسول –صلى الله عليه، وسلم – من الكفر مع أنه معصوم تعليم لأمته؛ لتقتدي به في أصل الدعاء، وقرن الفقر بالكفر ؛ لأنه قد يجر إليه، وكذلك الجمع بينه، وبين عذاب القبر، وقرانهم في الذكر يقتضي قوة المناسبة بينهم في المضرة.

وبين كلمة (القبر) و(الفقر) جناس ناقص،فقد اتفقتا في حرفي القاف، والراء، وكذا بين كلمة (الفقر) و(الكفر) حيث اتفقتا في حرفي الفاء، والراء، وهذا النغم الصوتي أحكم الصلة السمعية بين الكلمات الثلاثة على ما هي عليه في الصلة المعنوية.

ووثاقة الصلة جعلت العبارة مقبولة في السمع مفهومة في العقل واضحة الدلالة على المقصودة كما أنها سهلة الحفظ يسيرة عند الترديد.

وَعَنْ عائشة –رضي الله عنها – ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه، وسلم – كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِه: ((سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ)).(٤٨)

عبقرية البديع النبوي تبدو في هذا الحديث القصير كما تبدو في الأحاديث الطويلة، فصوت الواو، والسين المنبعث من الجناس الناقص بين كلمة (سبوح) و (قدوس) أحدث نغمًا رقيقاً خاصًا يحكي همس

(٤٦) الأذكار للنووي ص: ١٥٥ باب الحث على ذكر الله – تعلى– بعد صلاة الصبح الحديث رقم (٤١٧) وفي كنز العمال/ ج:١/ ص: ٣٣٥/ الحديث: (١٥٤٠).

(٤٧) الأذكار للنووي ص: ١٥٥ باب الحث على ذكر الله – تعلى– بعد صلاة الصبح الحديث رقم (٤١٨) وفي سنن النسائيالمجتبى من السنن (أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي) ج: ٨/ ص: ٦٥٥/ الحديث: (٥٤٨٠) تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة/ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب/ الطبعة الثانية، ١٤٠٦ه– ١٩٨٦م.

(٤٨) الأذكار النووية ص ١٢١ باب أذكار الركوع الحديث (٣٠١) وفي سنن النسائي ج: ٢/ ص: ١٩٠/ الحديث (١٠٤٨).

الخواطر لربها في هذا الموضع الخاص كما أن عبقرية التناغم بين حروف الكلمتين أحدثت طفرة في السمع زادته كلفًا بنغم العبارة حيث ختمت الثانية (قدوس) بالصوت نفسه الذي بدأت به الأولى (سبوح) وهو صوت السين وهذا الصوت بما له من صفات يدعم هذا الإحساس.

وإذا نظرت نظرة أخرى في الصورة السمعية للحديث أدركت نغمًا آخر مبعثه الجناس الناقص بين (سبوح) أول كلمة في الحديث، وبين (الروح) آخر كلمة في الحديث، وهو ما يُحْكِمُ الصلة بين أول الحديث، وآخره في السمع كما أحكمها في المعنى.

حيث إن المناسبة واضحة جلية بين (سبوح قدوس)، وإضافة (رب) للملائكة، وعطف الروح عليها، فالكلمات الأربع (سبوح – قدوس – الملائكة – الروح) بينها صلة قوية حيث يجتمع في كل منها دلالة الطهر والنزاهة بالقدر المناسب لكل منهم.

وقوله: "سبوح قدوس " يرويان بالضم، والفتح، والفتح أقيس، والضم أكثر استعمالا.

وقال الخطابي: لم يأت من الأسماء على فعُول بضم الفاء إلا "سبوح وقدوس" وقد يفتحان كسَفود، وتلوب. وقال ثعلب: كل اسم على فعول، فهو مفتوح الأول إلا السبوح، والقدوس، فإن الضم فيهما أكثر... وقال أبو الحسن الهنائي: ومعنى سبوح قدوس. أي: تسبيح، وتقديس، وتعظيم، ويقال: القدوس: الطاهر من العيب. وقال ابن فارس وغيره: معنى السبوح المسبح، أي: المبرأ من النقائص، والشريك، وكل ما لا يليق بالإلهية، ومعنى القدوس: المقدس، أي: المطهر من كل مالا يليق بالخالق. وقال القروي: قيل: القدوس المبارك. ([٤٩])

وعطف الروح على الملائكة من عطف الخاص على العام عناية به على اعتبار أن المراد من الروح جبريل، أو ملك عظيم من الملائكة،وخَصَّه بالذكر، وإن كان من الملائكة تشريفًا، وتخصيصًا ؛ كما قال تعالى: { مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } (البقرة الآية ٩٨)، فخصَّهما بالذكر تشريفًا لهما.قال القاضي عياض (... رب الملائكة والروح) هو من عطف الخاص على العام ؛ لأن الروح من الملائكة وهو ملك عظيم يكون إذا وقف كجميع الملائكة، وقيل: يحتمل أن يكون جبريل، وقيل: خلق لا تراهم الملائكة كنسبة الملائكة إلينا([٥٠]).

ومن العذوبة في اللفظ، والجمال في السمع، واليسر في الفهم ما ورد في سنن النسائي من دعاء الرسول – صلى الله عليه، وسلم – (...سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ...) ([٥١])

والعبارة في دعائه –صلى الله عليه، وسلم – (سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ) تتحدر ألفاظها على اللسان كتحدر الماء، وهو ما يعرف بالانسجام إضافة إلى الجناس الناقص في كلمتي (الجبروت والملكوت)، والنغم الرقيق الذي صدر عنه يرافقه نغم آخر مبعثه التوازن بين الكلمتين الذي نشأ من وزنهما، وفيهما مبالغة هذا محلها، فـ(الجبروت والملكوت مبالغة الجبر، وهو القهر، والملك، وهو التصرف أي: صاحب القهر، والتصرف البالغ كل منهما غايته، والكبرياء قيل: هي العظمة، والملك، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، ولا يوصف بها الا الله – تعالى– ([٥٢]).

---

(٤٩) شرح سنن أبي داود: لبدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ) ج: ٤ ص: ٧٨.

(٥٠) عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب/ج:٣ص: ٨٨/ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/ الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

(٥١) الأذكار النووية ص: ١٢٦/ باب أذكار السجود الحديث (٣٢٤)وفي سنن النسائي ج: ٢ ص: ١٩١/ الحديث (١٠٤٩).

(٥٢) حاشية السندي على النسائي لنور الدين بن عبدالهادي أبو الحسن السندي/ ج: ١٩٢/ تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة/ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب/ الطبعة الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

وبين هذه الكلمات تناسب في الألفاظ، والمعاني، فالمُنَزَّه بلفظ (سبحان) تناسبه صيغة المبالغة في الصفة كما تناسبه دلالة اللفظ في الجبروت، والملكوت، وكذا تناسبه العظمة، والكبرياء، والألفاظ الأربع من واد واحد في الدلالة على صفات الله – تعالى –.

ومنه ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه، وسلم – (أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ،وصِلوا الأرحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ) (٥٣).

الحديث يشتمل على جملة من فضائل الأعمال الموصلة للجنة، وجَّهها الرسول –صلى الله عليه، وسلم – في خطاب عام للأمة، وأراد أن تحفظ ؛ فتكون بين سمع السامع، وقلبه لأنها الطريق إلى الجنة ؛ فصاغ الحديث صياغة تحقق ذلك، وتضمن رسوخ المعنى فيما هنالك؛ فبناه هذا البناء الراقي في النسق، والدلالة.

والانسجام في اللفظ، واليسر في الفهم، وجمال العبارة أبرز خصائص الحديث الذي نشأ من تناسق هذاالسجع الجميل الذي شمل جميع جمل الحديث؛فأوجد موسيقى رقيقة تجذب السمع، وتداعب الوجدان، وتيسر الحفظ.

إضافة إلى الجناس بين (أطعموا)، و(الطعام)، وبين(صِلُوا)و(صَلُّوا) والذي ينشط العقل بطريقة شيقة توهمه ابتداءً بتكرار اللفظ، فإذا دقق النظر في اللفظين وجد لهما دلالتين مختلفتين، وهذا النشاط الذهني ينعش الفكر، ويثبِّت المعنى، ويزيد السامع اتصالًا بالمتكلم مما يعطي الأسلوب حيوية، ويزيد من جمال النص.

والإرصاد الذي ربط أول الحديث بآخره في قوله (السلام – وسلام) وجعل الحديث كله وحدة متماسكة في المعنى.

(قال النووي السلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم عن غيرهم من أهل الملل مع ما فيه من رياضة النفوس، ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين قال، وفي حديث آخر، وبذل السلام للعالم، والسلام على من عرفت، ومن لم تعرف وهما بمعنى إفشاء السلام قال، وفيها لطيفة أخرى، وهي أنها تتضمن رفع التقاطع،والتهاجر، والشحناء) (٥٤)

كما أن بين لفظ (السلام) في أول الحديث، والمقصود به التحية، وبين (سلام) في آخر الحديث، والمقصود به الأمن، والسلامة جناس تام يؤكد المعنى،ويقرر ضمنًا أن الجزاء من جنس العمل ؛ فمن كان في الدنيا منشغلًا بما يرضي الله – عز وجل– من نشر السلام،والمحبة، والرحمة كان جزؤه في الآخرة السلام الأتم،والراحة العظمى في الجنة.

والتكميل البلاغي في قوله –صلى الله عليه، وسلم – (والناس نيام) الذي ينبِّه إلى فضل قيام الليل ؛ لأنه وقت الغفلة، ولبعده عن الرياء والسمعة.

ومراعاة النظير التي جمعت بين اللفظ، وما يناسبه حيث جمع بين إفشاء السلام، والإطعام، والصلة، والصلاة وتتفق جميعًا في أنها من أعمال البر الموصلة للجنة.

(٥٣) الأذكار النووية ص: ٤٠٢/ باب فضل السلام وإفشائه الحديث (١٢٢٣).

(٥٤)الديباج على مسلم للحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ٨٤٩ – ٩١١ ه/ ج: ١/ ص: ٧١/ حقق أصله، وعلق عليه: أبو اسحق الحويني/ ط: دار ابن عفان.

المبحث الخامس
من خصائص البديع النبوي طرافة معانيه وجدّتها.

من الخصائص التي تتميز بها البلاغة النبوية بصفة عامة، والبديع النبوي بصفة خاصة طرافة المعاني التي حلَّت في ركابه، ووقعت في بابه، فكثير من هذه المعاني لم يسبق للمخاطبين إدراكها، ولم يسمعوا بها، فقد أطلع الله نبيه –صلى الله عليه، وسلم – على الجنة بنعيمها،والنار بجحيمها، ورأى ما رأى عند سدرة المنتهى،وما كشف له من أهوال القبور والحشر، والنشر، وزوى الله له الأرض ؛ فرأى مشارقها، ومغاربها.

هذه المعاني جاشت في صدره، وحملها قلبه، وتفاعلت معها كل ذرة في جسده، وأمر بتبليغها للناس.

إضافة إلى التكاليف الشرعية التي علَّمهم إياها، ولم يكن لهم سابق عهد بها، ومن ثمْ، فقد حملتفنون البديع النبوية هذه المعاني الطريفة ذات الأهمية القصوى لدى الناس.

وقد جاء البيان النبوي بفرائد في الأساليب، والمعاني تفرَّد بها عن كل بيان بشري.

قال الجاحظ:(وسنذكر من كلام رسول الله –صلى الله عليه، وسلم – مما لم يسبقه إليه عربي، ولم يشاركه فيه عجمي، ولم يدع لأحد، ولا ادعاه أحد مما صار مستعملا، ومثلا سائرًا)(٥٥).

وهذا في بلاغته عامة، وهو كذلك في البديع على وجه لم يتفق لغيره من العرب والعجم، ومن المعاني الجديدة التي طرق بها النبي –صلى الله عليه، وسلم – أسماع الناس ما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ جُوَيْرِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه، وسلم – خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ « مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا ». قَالَتْ نَعَمْ. قَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه، وسلم – « لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ ».. (٥٦)

تجد في الحديث معاني جديدة يطرق بها النبي–صلى الله عليه، وسلم – أبواب العقول، ويهز بها وجدانهم ليقرر في نفوسهم عظمة فضل ربهم، وأنهم مهما بالغوا في شكره، ففضله أعظم، وفي النهاية ما بلغه العبد الشاكر من محامد ربه هو بمحض فضل الله، وتوفيقه..فيجب عليه حمد آخر، والأخر يستلزم حمداً آخر، وهكذا في سلسلة لا تنقطع حتى يدخل العبد بها الجنة.

ومن المعاني الطريفة التي تضمَّنها الحديث المدى المقصود من (عدد خلقه) – تعالى –تكثيرًا للعدد، ومبالغة محمودة في بذل أقصى طاقة في الحمد، والتسبيح.

وكذا في المدى المقصود من (رضا نفسه)، و (زنة عرشه)، و(مداد كلماته) وهي معان عميقة تمرَّ بالعقول لتتركها في ذهول.. تلهث وراء إدراك دلالتها، ولا تستطيع ؛ لتقرر في الختام أن فضل الله أعظم، واستحقاقه للمحامد لا ينتهي مهما بالغ العبد في ذلك، ولكنه جهد بذله العبد، وأجزل له العطاء به الربُّ.

---

(٥٥) البيان والتبيين للجاحظ/ ص: ٢٢٠.

(٥٦) الأذكار للنووي ص ٥١ باب ما جاء في فضل الذكر غير مقيد بوقت الحديث رقم (٨٣) وفي سنن أبي داود ج: ١ ص: ٥٥٦/ الحديث (١٥٠٥).

وفي هذا الحديث النبوي نجد النغم الرقيق يعلق بالقلوب، ويجد طريقه في يسر إلى الأفهام، ويجري على الألسنة مجرى الماء الزلال لذي الغلة الصادي من ناحيتين: الأولى من ناحية المعنى حيث إنه تضمَّن التنزيه لله –تعالى – مع ما يوحي به الاسم العظم (الله) من إيحاءات تتسع، وتتعاظم بقدر صفاء القلب الذي يتملاها، ثم إنه أعقبها بالحمد بعد التنزيه، وفيه ما فيه من تناسب المعاني ؛ لأن المنزَّه عن النقائص مستحق للمحامد.

والناحية الثانية من ناحية الموسيقى الداخلية، والخارجية التي أشاعتها ألوان البديع دون أدنى تكلف لتأليف لون مع لون ؛ لأن اللفظ وُلد ممزوجًا بالمعنى لا يصلح أن ينفك عنه، فلو ذهبت تذيل لونًا من هذه الألوان لكان فيها من التكلف، والتعسف مثل ما في الحرص على الإتيان به رغم المعنى.

وإذا تتبعنا بداية الحديث نجد أشكالًا من وسائل سيطرة الأسلوب التي يتميز بها الأسلوب النبوي من مطلعه الذي تصدَّره الاستفهام بغرض التلطف، والإيناس، والتشجيع لما رأى من حرص جويرية – رضي الله عنها– على كثرة الذكر، والتقرب إلى الله في قوله: (مَا زِلْتِ اليَوْمَ عَلى الحالَةِ الَّتي فارَقْتُكِ عليها ؟) فقد فارقها –صلى الله عليه، وسلم – وهي على حال الذكر، وعاد إليها، وهي على حال الذكر.

ولما كانت بهذا الحرص كافأها الرسول –صلى الله عليه، وسلم – بإعلامها بطريقة أعظم لتحقيق ما تتمنى من الإكثار من الثواب عن طريق الذكر.

وتتجلى البراعة النبوية في عرض المعنى بطريقة تشويقية تحقق سيطرة الأسلوب عن طريق صورة من صور الإطناب بالتفصيل بعد الإجمال في قوله: (لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كلماتٍ ثلاثَ مَرَّاتٍ) فأجمل في قوله أربع كلمات، ثم فصَّل في قوله:(سُبحانَ اللَّهِ وبحمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِماتِهِ)، وقد زاد الأسلوب سيطرةً بتصعيد التشويق عن طريق أسلوب الشرط في قوله: (لَوْ وزِنَتْ بِما قُلْتِ مُنْذُ اليَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ).

ثم تأمل هذا التوازن الصوتي العجيب في الجمل التي جاءت تفصيلًا لهذا الإجمال حيث توازنت الفقرات، وجاءت مسجوعة تتصل كل فقرة بهذا السجع في النغم بما قبلها، وتمهد، وتبشر بما بعدها.

أضف إلى ذلك التناسب بين الألفاظ، والمعاني ؛لأن دلالة هذه الجمل جميعًا تدور حول تكثير الذكر، وألفاظ التنزيه، والحمد، والرضا من وادٍ واحد كما أن العدد، والوزن، والامتداد من وادٍ واحد في التقدير والقياس للأشياء، كما أن الخلق، والنفس والعرش تجتمع في كونها مخلوقات لله.

كما نجد التناسق العجيب بين فقرات الحديث (عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِماتِه) الذي حقق لونا من ألوان الموسيقى الخفية التي تكلف بها النفس البشرية.

معتمدا في ذلك على السجع الرقيق في نهاية كل فقرة، والذي أحدثه حرف الهاء بعيد المخرج، والذي يخرج من أقصى الحلق قريبًا من موضع القلب في الصدر.

وهذه المسافة التي يقطعها الصوت في مخرجه البعيد تعطي فرصة للتأمل في دلالة كل لفظة ختمت فقرة قبل أن يؤكدها بدلالة التي تليها.

وفي الختام تجد مددًا لا حصر له في دلالة الفقرات يوافق شعور المتكلم بالتقصير في الحمد مهما وسع لفظه استشعارًا لعظمة نعم ربه عليه.

إن نسق الكلام صورة من نفس صاحبه يعكس حركتها، وسكنتها، وكلما اكتملت النفس كلما اتسقت الألفاظ فيما بينها، ومع المعاني، وحكت حالة النفس بين استقرارها، أو اضطرابها

تأمل طرافة المعاني التي تقرر خشوع الجوارح، واستسلامها بين يدي خالقها، وقوة اتصالها، وتداخلها في نقل شعور، ونبض المتكلم في دعاء النبي– صلى الله عليه، وسلم – في ركوعه:" اللهمَّ لكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، ولكَ أسْلَمْتُ، خَشَعَ لكَ سَمْعِي وَبَصَرِي ومُخِّي وَعَظْمِي وَعَصبِي ". (٥٧)

وقد سبق شرح الحديث في خصيصة لزوم الطبع مع كثرة الألوان البديعية، وتتابعها، والشاهد لهذه الخصيصة هو تخصيص الجوارح بالخشوع الذي يشير إلى خشوع أجزاء البدن بل زرَّاته لله – عز وجل – وهو من كمال الخشوع.

وهذا المعنى لم يدركه العرب قبل حديث الرسول –صلى الله عليه، وسلم – كما أنه يحمل مع الجدة طرافة من تصور خشوع المخ، والعصب بل، والعظم.

قال العيني (وخشوع السمع، والبصر، والمخ، والعظم، والعصب كالخضوع في البدن. فإن قلت: كيف يتصور الخشوع من هذه الأشياء؟ قلت: ذكر الخشوع، وأراد به الانقياد، والطاعة، فيكون هذا من قبيل ذكر اللازم، وإرادة الملزوم، فإن قلت: ما وجه تخصيص السمع، والبصر من بين الحواس، وتخصيص المخ، والعظم، والعصب من بين سائر أجزاء البدن؟ قلت: أما تخصيص السمع والبصر فلأنهما أعظم الحواس، وأكثرها فعلاً، وأقواها عملاً، وأمسها حاجة، ولأن أكثر الآفات للمصلي بهما، فإذا خشعت قلَّت الوساوس الشيطانية، وأما تخصيص المخ، والعظم، والعصب، فلأن ما فيأقصى قعر البدن المخ، ثم العظم، ثم العصب، لأن المخ يمسكه العظم، والعظم يمسكه العصب، وسائر أجزاء البدن مركبة عليها، فهذه عمد بنية الحيوان، وأطنابها، وأيضا العصب خزانة الأرواح النفسانية، واللحم، والشحم غاد، ورائح، فإذا حصل الانقياد، والطاعة من هذه، فمن الذي يتركب عليها بالطَّريق الأولى.(٥٨)

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم –: " ما من رَجُل يَنْتَبِهُ منْ نَوْمه فيَقُولُ: الحَمْدُ للّه الَّذي خَلَقَ النَّوْمَ واليَقظَة، الحَمْدُ للّه الَّذي بَعَثَني سالماً سَوِيّاً، أشْهَدُ أنَّ اللّهَ يُحْيي المَوْتى وَهُوَ على كُلّ شَيْءٍ قدير. إلاَّ قال اللّهُ تَعالى: صَدَقَ عَبْدي " (٥٩)

طرافة هذا الحديث تبدو في رد الله على عبده الذاكر الشاكر لنعمه، وتصديقه الله له،وتجاوبه مع دعائه – عز وجل –.

وقد اشتمل الحديث على مجموعة من فنون البديع التي صاغت المعنى، فجاء في قالبها لا تنفك عنه، ولا يمكن أن ينفك عنها إلا إذا ذهبت بلاغة الحديث لشدة التشابك فيما بين ألوان البديع، وبين ألوان البلاغة عمومًا.

---

(٥٧) الأذكار للنووي ص ١٢١: باب أذكار الركوع الحديث رقم (٢٩٩)وفي سنن أبي داود ج: ١ ص: ٢٧٧/ الحديث: (٧٦٠).

(٥٨) شرح سنن أبي داود لبدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ) ج: ٣/ ص: ٣٦٣.

(٥٩) الأذكار للنووي ص ٥٧/ باب ما يقول إذا استيقظ من نومه الحديث رقم (١٠٩)وفي كنز العمال ج: ١٥ ص: ٣٥٥/ الحديث (٤١٣٥٢).

ومن هذه الألوان الطباق بين النوم، واليقظة دلالة على عموم خلق الله لهما، وتصرفه فيهما، وفي حال الإنسان حالهما.

ومنها الطباق بين الفعل (يحي) والاسم (الموتى)، والأول في صورة الفعل الدال على الحدوث، والتجدد، وفي صورة المضارع الدال على الاستمرار، والتجدد،والثاني اسم دال على الثبوت، وبذلك تظهر قوة أثر الفعل الذي بدَّل الحال من الموت إلى الحياة، والإحياء، والإماتة يختصان بالله – تعالى– ولا يدعيان لأحد من الخلق عند من له أدنى عقل.

ومنها التذييل البديع في قوله (وهو على كل شيء قدير) لما قرر أنه هو الذي يختص بالإحياء، والإماتة، وهو المنوط بتبديل الأحوال التي يتقلب فيها الخلق أكد ذلك بتقرير تمام قدرته على كل شيء ؛ لأن من قدر على الإحياء، والإماتة، فهو على غيرها أقدر، وهو النوم، واليقظة.

ومنها التكميل البلاغي في قوله (سويًا)بعد قوله (سالمًا) ؛ لأن الاستواء معنى زائد عن السلامة، وذكره أكمل المعنى، وحقق هذه الفائدة.

وفيه مراعاة النظير ؛ لأن النوم، واليقظة ضدان يقترنان في العقل، وكذا الموت،والحياة، ويتشابهان مع النوم واليقظة.

وفي الحديث إشارة بلاغية إلى قوله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر– ٤٢].

ومنها التناسب بين الألفاظ، والمعاني، وتأمل ذلك القصر البليغ بالنفي، والاستثناء الذي شمل جميع جمل الحديث بين النفي، والاستثناء (ما من رجل ينتبه من نومه، فيقول... إلا قال الله صدق عبدي) وقد ربط هذا التركيب المخاطب برباط التشويق من بداية الحديث إلى نهايته حتى استكمل المعنى.

المبحث السادس
من خصائص البديع النبوي كثرة الألفاظ الموحية بطبيعتها فيه.

قد تدرك عند تأمل كلام أصحاب الطبقة العالية من الفصاحة،ومن أرباب البيان ممن تميزوا بدقة الأسلوب، ورقة المشاعر استخدامهم لألفاظ موحية بطبيعتها، لكنك تجدها متفرقة فرادى نادرة، أو قليلة لما تتميز به هذه الألفاظ من طبيعة خاصة في الأسلوب الذي ترد فيه، والمقام الذي يتطلبها.

بينما تجد هذه النوعية من الألفاظ كثيرة في البيان النبوي الذي طرق أبوابًا جديدة من المعاني لم يكن للعربي معرفة بها، ولاسيما المعاني الغيبية التي صارت جزءًا من عقيدة المسلم، وأصبحت هناك مفردات بالغة التأثير عليه مشعة في نفسه إشعاعًا خاصًا بكل لفظ كأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى، وأعظمها تأثيرًا لفظ الجلالة،(الله)، وهو أعظمها على الإطلاق.

ومنها لفظ (الجنة – النار الحشر– الصراط – القبر – وأسماء الملائكة، والرسل، وأعظمهم (محمد) – صلى الله عليه، وسلم – وغيرها من الألفاظ الكثيرة التي وردت منثورة في أحاديث النبي –صلى الله عليه، وسلم – لاسيما أحاديث الذكر والدعاء ؛ فصارت في صفحة البيان النبوي كالنجوم في السماء التي تشرق في النفس، وتضئ الوجدان، وتؤزه، أو تهزه.

تأمل قوله عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه أن رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم – قال: " مَنْ قالَ رَضيتُ باللّه رَبّاً، وبالإسلام ديناً، وبمُحَمَّدٍ – صلى الله عليه، وسلم – رَسُولاً وَجَبَتْ لَـهُ الجَنَّـةُ "(٦٠).

تأمل أثر الألفاظ، ووحيها، وإشعاعها، وتناسبها مع معناها، وهو لون بديعي، وهذا التناسب يبدو جليًا بين الألفاظ، والمعاني فألفاظ الحديث (الله – الرب – الإسلام – محمد – الرسول– الجنة) تجتمع في كونها تتصل بالعقيدة، والعبادة، وهي تتصل فيما بينها في بناء عقيدة المسلم.

أضف إلى ذلك سلاسة الألفاظ، وخفتها مع كونها من الألفاظ الموحية بطبيعتها، فلفظ الجلالة (الله) تجد كل ما شئت فيه من مشاعر الجلال، والكمال، ثم إن إشعاعه في كل قلب بقدر.

ولفظ (الرب) الذي يوحي بالعناية، والقرب والحفظ، وغيرها من هالة الدلالة حول اللفظ، وكلمة (الإسلام) التي ترسخ الخضوع، وتزلل النفوس لتشريع ربها،وكأنها تروضها على قبول ما يتضمن من التشريعات.

ولفظ (محمد) –صلى الله عليه، وسلم – لفظ حبيب يرسل إلى جنبات النفس صورة الكمال البشري التي وسعها شخصه –صلى الله عليه، وسلم – مع دلالة الكلمة التي تقرر استحقاقه للمحامد.

ودلالة لفظ الرسول الدالة على المهمة الأسمى التي نهض بها بين ربه، وبين العباد، وهي مرتبطة بشخصه الحبيب الذي أدَّاها على خير وجه، كما ترشد إلى وجوب السمع، والطاعة في الأمر، والنهي، والاتباع في نمط العبادة، والعادة للنموذج الكامل الذي لم يدركه نقص.

ثم إن الجزاء من جنس العمل لما كانت البداية بالرضا من العبد خضوعًا، واستسلامًا لأمر ربه كانت النهاية مطلق الرضا من الرب للعبد إسعادًا، وإكرامًا في دار الرضوان في الجنان.

---

(٦٠) الأذكار للنووي ص ٥٤: باب ما جاء في فضل الذكر غير مقيد بوقت الحديث رقم (٩٧) وفي سنن أبي داود ج: ١ ص: ٥٦٢/ الحديث رقم (١٥٣١).

كما أن هذا التنوين الذي ارتبط بأواخر الكلمات (ربًا – دينًا – رسولًا) وثق الصلة المعنوية لدلالة الكلمات بجرس الكلمات، وموسيقاها الرقيق التي تترك صداها في السمع يتجدد متساوقا مع دلالتها في القلب تتردد.

تأمل قوة وحي الكلمات في قوله فيما روى أبو مالك الأشعري – رضي اللّه عنه – قال:

قال رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم –: " الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَان، والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الميزَانَ، وَسُبْحانَ اللَّه والحَمْدُ للَّه تَمْلآن، أوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَات وَالأرْض. (٦١)

فتجد كلمة (الطهور – الإيمان – الله – سبحان – الميزان)

الدلالة الإيحائية لكلمة (الطهور) تبث في النفس معنى الإشراق، والصفاء، والطهر، والنقاء، ومعانى أخرى تستشعرها النفس بقدر قربها من أصل الفطرة النقية، وهذا في حد ذاته من براعة الاستهلال لميل النفوس إلى أصل فطرتها، وحرصها على تحقيق المعنى.

ثم إن هذا التجانس الذي يلوح على استحياء في حرفي الراء، والطاء المكررين في المبتدأ، وخبره (الطهور شطر) يرسل في رقة نغمة عذبة لا تكاد تدرك النفس مصدرها مع شعورها بأثرها.

وهي تترافق، وتتداخل في التنغيم مع ذلك السجع البديع بين الجملتين المختتمتين بالألف، والنون (الإيمان، والميزان).

والإيمان لفظ معناه يسكن كل قلب مؤمن يشعره بالطمأنينة، والراحة.

أما الميزان مع وجود الإيمان، فإنه يوحي بالعدالة المطلقة المفضية إلى السعادة الأبدية، ويستحضر في ذهن المؤمن لحظة الفصل التي عاش يعمل لها طول عمره، وهذا الشعور الذي يوحي به لفظ (الميزان) في قاموس المسلم يدفعه لمزيد من الأعمال التي تثقل كفة الحسنات.

وتأمل جمال هذا الترصيع الذي نشأ من هذا التوازن العجيب بين الجملتين (الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَان) (والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ).

إضافة إلى الجناس الناقص الذي أحكم الصلة في الأذن بين الكلمتين، وأكد دلالة المعنين المختلفتين.

وقد وصل هذا النغم الآسر بين كل جمل الحديث عن طريق اتفاق الفواصل بسجعها حيث ختمت بالنون، وهو حرف غنة صوته مميز، وتكراره في نهاية الجمل له وقع خاص.

والطباق بين السماء، والأرض يقرر عظمة الثواب الذي يؤكد خطر هذا الذكر، كما ينبه كل من غفل عن هذا الفضل ليحصِّل نصيبه من هذا العطاء الذي لا يحرمه بعد العلم به إلا جِدُّ محروم.

ولفظ (سبحان) من الألفاظ الدالة على التنزيه الموحية بالقدسية، والجلال لارتباطها دائمًا، واختصاصها بلفظ الجلالة (الله) بما له من وقع في قلب كل مؤمن بقدر إيمانه.

والجمع بين (الإيمان – الميزان – سبحان – الله) من مراعاة النظير بالجمع بين الشيء، وما يناسبه ؛ لأنها من واد واحد في عقيدة المؤمن.

(٦١) الأذكار للنووي ص: ٥٠/ باب ما جاء في فضل الذكر غير مقيد بوقت الحديث رقم (٨٢)وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل/ ج: ٣٥/ ص: ٥٣٦/ الحديث رقم: (٢٢٩٠٢) المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون/ الناشر: مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

واجتماع هذه العدد من الكلمات الموحية بطبيعتها طي فنون البديع في الحديث لا تجده مع كمال الطبع، ودقة النسق إلا في البديع النبوي، وهو ما يؤكد أنها خصيصة فيه لا توجد في غيره.

ومن الأحاديث التي اشتملت على ألفاظ موحية بطبيعتها ما جاء عن ثوبان – رضي اللّه عنه– قال:كان رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم – إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ، تَبارَكْتَ يا ذَا الجَلالِ وَالإكْرام " (٦٢)

في قوله (اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ، وَمِنْكَ السَّلامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلالِ وَالإكْرَام) سجع بديع متناسق مع المعنى مع انسجام في العبارات يجعل العبارة سهلة الحفظ، عذبة النطق مقبولة في السمع محبوبة للنفس مهما تكررت.

والجناس التام بين قوله (السلام) الأول،وهو اسم من أسماء الله الحسنى و(السلام) الثاني، وهو من السلامة وهو تجرد النفس عن المحنة في الدارين هذا الجناس التام يؤكد المعنى، ويقرر أن الله – عز وجل – هو أصل مصدر هذه الصفة، والمتفضل على عباده بهذه النعمة.

والعبارة تفيض بالكلمات الموحية بطبيعتها التي تبعث السكينة، والطمأنينة في النفس المستشرفة إلى رضوان لله – تعالى – وفيها الخضوع،والإجلال، والتعظيم،كما أنها تفيض بمعاني الأمن،والسلامة، والرحمة المنبعثة من اسم الله السلام الذي هو منبع كل سلام.

كما أن تكرار حرف الميم في أواخر الكلمات أشبعت تلك الصفة (السلام) التي يحتاجها العبد في كل المواقف التي يمرُّ بها بين الحياة، والممات.

والميم حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه، فوضعته العرب علماً على الجمع فقالوا للواحد:أنت،فإذا جاوزه للجمع قالوا:أنتم، كذلك في المتصل يقولون: ضربت،وضربتم، وإياك،وإياكم، ونظائره به، وبهم.

وتأمل الألفاظ المعقود فيها الميم كيف تجد الجمع معقوداً بها مثل: ألمَّ الشيء يلمه إذ جمعه، ومنه ألمَّ الله شعثه. وإذا علم هذا من شأن الميم فهم ألحقوها في آخر هذا الاسم (اللهم) الذي صدَّر به الحديث تضرعًا، وخضوعًا، والذي يسأل الله – سبحانه – به في كل حاجة،وكل حال إيذاناً بجميع أسمائه،وصفاته، فالسائل إذا قال: اللهم إني أسألك، كأنه قال: أدعوا الله الذي له الأسماء الحسنى،والصفات العليا، بأسمائه،وصفاته، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم إيذاناً بسؤاله– تعالى– بأسمائه كلها، والداعي مندوب إلى أن يسأل الله –تعالى– بأسمائه، وصفاته كما في الاسم الأعظم.(٦٣)

ثم ختم بتذييل بديع يتناسب مع طلب السلام، واستغراقها للعبد في كل موقف من المواقف التي تعرض للعبد، وليس فيها حول، ولا قوة إلا لذي الجلال، والإكرام، والجلال: العظمة، وهو جامع لصفات الكمال اللائقة به تعالى، والإكرام: إسداء النعمة، والخير.

---

(٦٢) الأذكار للنووي ص ١٥٠: باب الأذكار بعد الصلاة الحديث رقم (٤٠٤) وفي سنن ابن ماجه (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني)ج: ١/ ص: ٣٠٠/ الحديث رقم (٩٢٨) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي/ الناشر: دار الفكر – بيروت.

(٦٣) ينظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم/ جـ١/ صـ٥٧٦/ طبعة أولى/ ١٤١٨هـ ١٩٩٨م/ ط.دار الوسيلة جدة السعودية.

عن عائشة –رضي الله عنها – أن رسول اللّه – صلى الله عليه، وسلم – كان إذا استيقظ من الليل قال: " لا إلهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وبحمدكَ، أستَغْفرُكَ لذَنْبي، وأسألُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْني علْماً، ولا تُزغْ قلْبي بَعْدَ إذْ هَدَيْتَني، وَهَبْ لي منْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إنَّكَ أنْتَ الوَهَّابُ ". (٦٤)

إشعاع الألفاظ الموحية بطبيعتها، والتي لا يكاد يخلو منها حديث من أحاديث الذكر والدعاء لها وقع خاص في تربية النفوس على الإيمان، والطهر، ودوام الاتصال بالله – تعالى–وملاحظة نعمته في تقلب الإنسان في حياته من بداية معاشه إلى إدراك معاده.

وهذا الحديث تصدرته عبارة التوحيد عبارة لها قدرها عند المسلم لما رسخ في عقيدته من عظم فضلها عند الله، ولما قرَّ في عقله من دلالتها، وفي قلبه من إشعاعها، وعلى ذلك، فالبداية بها من براعة الاستهلال، وهي تقدمة حسنة للتمهيد لما بعدها من طلب المغفرة، والرحمة، والعلم، والثبات على الهداية، وهي أمور لا يحققها إلا الله، وكل من دُعي من دونه، فهو عاجز عنها.

ولما أقرَّ العبد بأنه الواحد الأحد الذي أحياه من موته الأصغر، وسيبعثه من موته الأكبر استلزم ذلك تنزيهه، وحمده (سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وبحمدِكَ).

واللفظان (سبحان – اللهم) لا يستخدمان إلا مع الله – عز وجل – وإشعاعهما بالغ التأثير في الدعاء الذي ينعكس على قلب المؤمن بالضياء يتلوه العطاء من الله معنويًا، وماديًا بتحقيق الغاية.

وفي الحديث مراعاة نظير متميزة حيث جمع بين الموجبات (التسبيح – والحمد، والاستغفار) والمستتبعات لطلب الزيادة في العلم، والثبات على الهداية – والرحمة، فجعل الأوليات كمقدمة لطلب ما تلاهن.

وبين هذه الكلمات، ومعانيها تناسب واضح يظهر من أكثر من جهة منها أن العبد كلما زاد في العلم زادت معرفته بربه، فزاد تنزيهه له بالتسبيح، وكلما زاد في الحمد زاده الله ثباتًا على الحق، ورسوخًا في الهداية، وكلما زاد في الاستغفار ؛ منعه الله أسباب العذاب والهلاك، واستوجب الرحمة.

والتناسب واضح بين الاستغفار، والذنب، وطلب الزيادة، والعلم، وعدم الزيغ والهداية، والهبة، والرحمة.

وتأمل الإرصاد البديع في قوله (وهب لي من لدنك رحمة) التي توحي بأنه سيختم بقوله (إنك أنت الوهاب) أضف إلى ذلك أن قوله: (لا إله إلا أنت) من معانيها أن كل شيء له وهو المتصرف فيه، وبالتالي حق العطاء، والمنع له، فيهب لمن يشاء، ويحرم من يشاء.

وقوله: (إنك أنت الوهاب) تذييل بديع لكل ما سبقه من تنزيه، وتحميد، وطلب لا يتحقق على عظمه إلا ممن كانت هذه صفته.وثمَّة ألفاظ لها هذه الصفة، وهي أنها موحية بطبيعتها دون أن تكون متصلة بالعقيدة، والدين، ولدلالتها تأثير على مختلف النفوس، وتبدو براعة الرسول–صلى الله عليه، وسلم – في توظيفها لتكون في قمة الإشعاع خلال سبكها في ألوان البديع في أحاديث الذكر، والدعاء.

(٦٤) الأذكار للنووي ص: ٥٨: باب ما إذا استيقظ من نومه الحديث رقم (١١١)وفي سنن أبي داود ج: ٤ص: ٤٧٤/ الحديث رقم (٥٠٦٣).

من ذلك قوله عن ابن عمرَ – رضي اللّه عنهما –:أن النبيّ – صلى الله عليه، وسلم – رأى على عمر رضي اللّه عنه ثوباً فقال: " أجَديدٌ هَذا أمْ غَسيلٌ ؟ فقال: بل غسيل، فقال: الْبَسْ جَديداً، وَعشْ حَميداً، وَمُتْ شَهيداً سَعيداً (٦٥).

تأمل دلالة الكلمات (جديدًا– سعيدًا – حميدًا – شهيدًا) تجد أن لها أثرًا في النفوس أكثر من غيرها، فالجديد لفظ يداعب النفس بحب الاستكشاف، وتمام لم يدركه نقصان، والسعادة حلم كل نفس تفجر طاقاتها فيما تهوى وتشتهي، والحمد، والثناء أمران محبوبان في الجبلة قال الشاعر (من الكامل):

يهوى الثناء مبرّزٌ ومقصرٌ... حبّ الثناء طبيعة الإنسان (٦٦)

والشهيد، وإن كان متصلًا بالشرع إلا أنه يوحي بالعطاء الأعظم، والخلود في النعيم الذي ليس له قاطع، ولا يدركه فناء، وهو مكرم عند الله، وعند الناس، وكل أمة تكرم شهدائها، وتعظم ذكرهم.

وقد وردت هذه الكلمات الموحية طي ألوان البديع، فأكسبتها تأثيرًا فوق تأثيرهًا، فإضافة إلى الطباق بين قوله: (جديد)، وبين (غسيل) الذي يعني أنه قديم نجد الجناس الناقص في الكلمات (جديدًا – حميدًا – شهيدًا – سعيدًا) والذي يداعب وجدان المُهنَّئ مع انشراح صدره المتصاعد مع كل جملة دعائية دعاها الرسول –صلى الله عليه، وسلم – له، والتي ختمت بتنوين رقيق في نهايتها يهدد خواطر النفس، ويرفع درجة بعد درجة هامة الرأس لشرف الداعي، وسرور المدعو له قال: (الْبَسْ جَدِيداً – عِشْ حَمِيداً – مُتْ شَهيداً سَعِيداً).

كما أنه تناسق في الوظيفة الصوتية مع السجع الجميل في الجمل الثلاثة إضافة إلى الانسجام الناشئ من سهوله الألفاظ، وجريانها خفيفة على اللسان مقبولة في الآذان، مطبوعة في الوجدان، وهو ما يسهم في تيسير الحفظ، وسرعة الذيوع حتى يصير جاريًا على الألسنة كلما رأت من يلبس جديدًا، وهي عبارة تؤدي جزءًا من رقية حافظة للنعمة تسبق شعور النفس بالحسد، أو تقاومه حتى تطفئه في نفس من يرى نعمة حديثة على أخيه المسلم.

وفيها تذكير للمحروم بسرعة الانتقال من هذا المتاع القليل إلى المتاع الدائم الذي يدركه الشهيد بإدراك السعادة الأبدية، وهو ما يجب أن تتوجه له النفوس، وتحرص عليه القلوب، وتنشغل بتحصيل أسبابه، وهو ما يساعد في قمع ثورة الحسد لمرأى الجديد في البصر الحديد.

زد على ذلك التوازن الصوتي بين جمل الحديث حيث بدأت كل جملة بفعل على صيغة الأمر، وختمت بمفعول على وزن فعيل (جديد – حميد – شهيد – سعيد) ولهذا ما له في النفس من سرعة الإنصات، والقبول، وسرعة العلوق بها، والاستقرار فيها، وهي أمور مقصودة في صياغة أحاديث الذكر، والدعاء.

وبعد فمن يتتبع ما ذكرنا من خصائص، وما قد يكون فاتنا منها يجد عجبًا في هذه الفنون الدقيقة،ومواضعها الرقيقة في البيان النبوي عامة، وفي أحاديث الذكر، والدعاء خاصة فما عرضه هذا

---

(٦٥) الأذكار للنووي ص ٦٠: باب ما يقول لصاحبه إذا رأى عليه ثوبًا جديدًا الحديث رقم (١١٩) وفي سنن ابن ماجة ج: ٢ ص: ١١٧٨/ الحديث رقم (٣٥٥٨).

(٦٦) البيت لابن نباتة المصري ينظر زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني/ ج ١/ ص: ٢٥٢/ تحقيق: أ. د/ يوسف على طويل/ دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت/ لبنان/ الطبعة: الأولى – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

البحث غيض من فيض، وقليل من كثير أرد أن يفتح الطريق لغيره ليتلمس هذه النفـائس، ويـتعلم فنـون القول التي تأخذ بمجامع القلوب، وتشتمل على جوامع الكلم، وتأخذ الحسن من كل أطرافه.

وهي كفيلة بأن تقضي على الخلاف الذي طالما أشعل المعارك الأدبية بين المشككين في قيمـة ألـوان البديع والمؤكدين لقيمته.

كما يضع خطًا فاصلًا بين من أسرف في استخدام البديع،وكلف به دون طبع، ومن أقل منه رغم الحاجة تجنبًا لشبهة التكلف.

فقد ظهر خلال تحليل النصوص الواردة في البحث الصورة المثلى لاسـتخدام ألـوان البـديع بطريقـة عبقرية تحقق تمام الوضوح في المعنى، والجمال في اللفظ إضافة إلى مجموعة من الفوائد سبقت الإشـارة إليها مفصلة في أثناء التحليل، ويأتي ذكرها مجملة في الخاتمة.

وهذه الصورة التي يقدمها البيان النبوي هي ذروة الاستخدام البشري لهذه الألوان على وجهها الأمثل ؛ فوجب أن تكون قبلة الدارسين، والمعلمين لتربية الذوق، والفطرة اللغوية التي نفتقدها في زمـن الضـعف اللغوي، والاضمحلال البياني.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، والصلاة، والسلام على نبيه خير البريات، وعلى آله، وصحبه، ومن تمسَّك بالباقيات الصالحات إلى يوم الممات، وبعد..

فالبحث في بستان البيان النبوي خير ما ينفق فيه الإنسان جهده، ووقته، وكل غالٍ، ونفيس بعد كتاب الله – عز، وجل –،وقد حاولت في هذه الدراسة إلقاء الضوء على مميزات البديع النبوي، واستجلاء ما أمكن من خصائصه التي اختص بها عن غيره ؛لتكون بين سمع الدارسين، وبصرهم تقودهم إلى حسن البيان، ويسر الإفهام، وقد تبين خلال الدراسة ما يلي:

أولا: الإشارة إلى بعض فوائد البديع في أحاديث الذكر، والدعاء.

١- قطع المخاطب عن شواغله، وتوجيهه إلى المتكلم.

٢- السيطرة على عقل المخاطب، وقلبه في أثناء الحديث.

٣- ضمان استمرارية استشراف المخاطب حتى يتم تقرير المعنى المراد.

٤- تحقيق الثبات للمعنى في ذهن المخاطب بعد تقريره.

٥- تحقيق الذيوع، والانتشار للمعنى لما يدرك المخاطب من أريحية، وطرب من هذه الأساليب يدفعه إلى التغني بها، وترديدها.

٦- هدهدة الخاطر، ومداعبة الوجدان، وتحقيق المتعة الفنية لاسيما مع كثرة الترديد.

٧- دراسة البديع في الحديث النبوي من أفضل ما يربِّي الذوق، والملكة،ويصقل الطبع، ويعين على حسن العرض، إضافة إلى أنه يفيد ما يفيده غيره من ألوان البلاغة من تقرير المعاني، وتأكيدها، وتثبيتها.

ثانياً ملاحظات تتعلق بألوان البديع:

– تبين خلال الدراسة أن ثمة ألوانًا من البديع لا يكاد يخلو منها حديث نبوي كتناسب الألفاظ، والمعاني، والانسجام، وهي من أسباب سلاسة الألفاظ النبوية، ويسر المعاني التي تجد طريقها إلى مختلف الأفهام على تفاوتها في درجة الذكاء، والفهم.

– السجع، والجناس من الألوان البديعية التي كثرت في أحاديث الذكر خاصة، والطباق، والمقابلة من الألوان التي كثر ورودها في الحديث النبوي عامة، وأحاديث الأذكار خاصة نظرًا لحرص النبي –صلى الله عليه، وسلم – على وضع الضد إزاء ضده حتى يتبين حسن الحسن إذا قرن بقبح القبيح، والعكس، وهي طريقة ناجعة ناجحة في تقرير المعاني.

كما أن الطباق، والمقابلة يحققان استيعاب الأطراف، والعموم الذي يدخل تحت مظلته كل مسلم، والشمول الذي يضمن للإنسان المؤمن دنياه، وأخراه.

– هناك ألوان من البديع متوسطة الورود في الحديث النبوي ترد أحيانًا عندما يستدعيها المعنى كالتتميم البلاغي، والتكميل، والإشارة البلاغية، والترصيع.

– كما أن هناك ألوانًا من البديع قليلة الورود، وألوانًا أخرى لم ترد مطلقًا لضعف تأثيرها ولفظ السياق العالي لها، أو لتنزه المعنى النبوي عنها، ومن هذه الألوان الموارية التي تقوم على لون من ألوان الكذب، وما لا يستحيل بالانعكاس،الذي لا فائدة من وجوده، وما ورد منها في بعض الكلام الفصيح لم يكن مقصودًا لذاته.

– تميزت الألوان البديعية بالترابط الشديد فيما بينها خاصة، ومع ألوان البلاغة عامة، وهذا سمت الطبع، وطبيعة جريانه في النسج البياني.

– أدت الألوان البديعية دورًا مهمًا في جذب الأسماع للأحاديث مع توفير درجة مناسبة من الاستشراف، والتشويق اللازمين لمتابعة المعنى.

– حققت الألوان البديعية سهولة الحفظ لما توفر فيها من عناصر صوتية، وموسيقى داخلية، وخارجية، وتوازن صوتي.

– أحدث وجود هذه العناصر الصوتية توازنًا، وانسجامًا ساعد في سرعة وصول المعاني للأفهام لجريانها سلسة على الألسنة، وعلوقها بالقلوب، فحقق ذلك سرعة انتشار أحاديث الذكر، والدعاء.

– لم يقع في أحاديث الكتاب لون بديعي مستجلب بتكلف قلق في موضعه غير مستقر في مكانه نافر عن إخوته، وهو ما يؤكد استغراق الطبع لجملة الكلام.

<u>ثالثًا من خصائص البديع في أحاديث الذكر والدعاء</u>

- من مميزات البديع النبوي في أحاديث الذكر ترافق كثرة الاستخدام مع لزوم الطبع وهو ما لم يتأت لبليغ – قبل النبي –صلى الله عليه، وسلم – ولا بعده – مهما بلغت درجته فكل من أكثر من البديع اعتمد الصنعة، والمهارة، وفارق الطبع، ولم يخل من التكلف مع تفاوت كلامه في طبقة البلاغة ؛ وهذا ما يؤكد التوفيق الإلهي، والإلهام النبوي في أحاديث من لا ينطق عن الهوى –صلى الله عليه، وسلم –.
- المهابة، والجلال مع الحسن، والجمال، وهذه المهابة انسحبت عليه من جلال المعنى الوارد في ركابه، فكل ما خاطب به النبي –صلى الله عليه، وسلم – الأمة من الأمور العظام، والخطوب الجسام.
- ومن مميزات البديع في أحاديث النبي –صلى الله عليه، وسلم – أن ألوان البديع وردت منثورة في مساحة المعنى بطريقة عبقرية حققت الإمتاع النفسي، والسبق البياني، وبرز المعنى خلالها في مَعرضٍ دانٍ تساوى في فهمه المخاطبون على تفاوت ما بينهم في درجات الفهم.

وهذه الطريقة العبقرية تحتاج أن يتملاها العقل طويلًا حتى يقف على مظاهر الحسن، وأسباب الجمال التعبيري فيها، ويتعلم منها فن القول.

- شدة التشابك بين ألوان البديع في الحديث الواحد، فالمتأمل لكثير من الأحاديث يجد أنها على قصر كثير منها تحتوي كثيرًا من ألوان البديع، ومع التحليل، والتدقيق في هذه الألوان تجد أنها متداخلة يتمم بعضها بعضًا، ومحاولة نزعها، أوفصلها تذهب برونق النسق.
- الخلوص، والقصد، والاستيفاء، وهي سمة تحدث عنها الرافعي على اعتبارها سمة لبلاغة النبي عامة، وليست للبديع خاصة، وهي كذلك، ولكنك تجد صداها القوي طي ألوان البديع مع رونق خاص يكشف آية العبقرية، ويظهر سَمت الجمال.
- سياق البديع في الحديث النبوي عامة، وأحاديث الذكر، والدعاء خاصة لا تقبل فكرة التكلف، وقد اتضح خلال التحليل للشواهد النبوية مجافاة المعاني التي تتناولها للتكلف كقوله – صلى الله عليه، وسلم – : <u>" اللهمَّ لكَ ركَعْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، ولكَ أسْلَمْتُ، خَشَعَ لكَ سَمْعي وبَصَري ومُخِّي وَعَظْمي وَعَصبي ". (٦٧)</u>

(٦٧) الأذكار للنووي ص ١٢١: باب أذكار الركوع الحديث رقم (٢٩٩)وسنن الترمذي/ ج: ٥/ ص: ٤٨٦/ الحديث: (٣٤٢٢).

وقوله – صلى الله عليه، وسلم –: في آخر وتره: " اللَّهُمَّ إني أعُوذُ برضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وأعُوذُ بمُعافاتكَ منْ عُقُوبَتكَ، وأعُوذُ بكَ منك لا أحْصي ثناءً عَلَيْكَ أنْتَ كما أثْنَيْتَ على نَفْسك ". (٦٨) وغيرهما من الأحاديث التي تؤكد لفظ البيان النبوي للتكل، وبعده عنه.

- تميزت فنون البديع في حديث النبي –صلى الله عليه، وسلم – بصفة الإبلاغ ولذلك تجد صداها في النفوس في هذا العصر كصداها في نفوس من سمعها أول مرة، وكمن سمعها في كل عصر تقع من قلبه، وعقله في مكان.
- هذا ويوصي الباحث الدارسين، والباحثين، وكل أفراد الأمة إلى الاجتماع حول هذا النبع الأعظم في بستانه – صلى الله عليه، وسلم – ؛لننهل منه كل ما نحتاجه في حياتنا ما يختص بالبلاغة، وفنونها، واللغة، وعلومها بل، وكل ما نحتاجه في حياتنا،وما ينجينا بعد مماتنا ؛فيكون الرسول – صلى الله عليه وسلم – كأنه بيننا يوجهنا خلال بيانه ؛ فما ربط الله اسمه باسمه، وجعل ذكره يتكرر في الأذان على مدار اليوم، والليلة، وأوجب ذكره في كل صلاة من فرض،أو نفل إلا ليكون بيننا أبداً منهج حياة، ومنارة هدى.

يقول الرافعي عن حكمة ذكره في الأذان، والصلاة:"وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ، ولا جزءاً واحداً من اليوم، فيمتد الزمن مهما امتد، والإسلام كأنه على أوله، وكأنه في يوم لا في دهر بعيد، والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعثه روح الرسالة، ويسطع في نفسه إشراق النبوة، فيكون دائماً كالمسلم الأول الذى غير وجه الأرض، ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه، وفضائله، وحميته في كل بقعة من الدنيا.... أيها المسلم...! لا تنقطع من نبيك العظيم، وعش فيه أبداً، واجعله مثلك الأعلى، وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بين يديه...."(٦٩)أخيرًافمهما طال مكث الباحث في البيان النبوي، ومهما حصَّل فما فاته منه أكثر مما أدركه، ولكنه جهد بشري يهفو إلى الكمال، وهو إلى النقصان أقرب.أسأل الله – عز وجل – أن يغفر لنا الزلات، وأن يتجاوز عن العثرات، وأن يوفقنا – وكل قارئ وسامع – إلى الباقيات الصالحات، وله الحمد في الأولى، والآخرة، وصلى اللهم على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

الباحث

(٦٨) الأذكار للنووي ص ١٢٧ باب أذكار السجود الحديث رقم (٣٢٧) وسنن أبي داود/ج: ١/ ص ٥٣٧/ الحديث رقم (١٤٢٩).

(٦٩) وحي القلم/ مصطفى صادق الرافعي/ جـ٢/ صـ١١/ ط. دار الكتاب العربي/ بيروت لبنان.

فهرس المراجع

- الأذكار للنووي (حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار (المعروف بالأذكار النووية) لأبي زكريا بن يحي بن شرف النووي الدمشقي – (٦٣١-٦٧٦هـ) تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي طبعة دار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت – ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م.
- أسرار البلاغة/ ت: محمود محمد شاكر/ الطبعة الأولى/ ١٤١٢ هـ ١٩٩١م/ مطبعة المدني.
- الأعلام للزركلي/ الناشر: دار العلم للملايين/ الطبعة:الخامسة عشر/ ٢٠٠٢ م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين/ المؤلف: أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري) الناشر: دار الفكر – دمشق.
- الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني) الناشر: دار إحياء العلوم – بيروت/ الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.
- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة لمحمد بن يعقوب الفيروزأبادي/ تحقيق: محمد المصري/ دار النشر/ جمعية إحياء التراث الإسلامي – الكويت – ١٤٠٧/الطبعة: الأولى.
- البيان والتبيين/المؤلف: أبي عثمان عمرو بن بحر/ تحقيق: المحامي فوزي عطوي/ الطبعة الأولى، ١٩٦٨/ دار صعب – بيروت.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الإصبع المصري/تحقيق د: حفني محمد شرف/ القاهرة: ١٤١٦ه ١٩٩٥م.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا/دار الكتب العلمية – بيروت.
- التعريفات المؤلف: علي بن محمد بن علي الجرجاني/ تحقيق: إبراهيم الأبياري/ الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت
- الجامع الصحيح سنن الترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي)/ تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون/ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- حاشية السندي على النسائي لنور الدين بن عبدالهادي أبو الحسن السندي/ تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة/ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب/ الطبعة الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي (تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري) تحقيق: عصام شعيتو/ الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت/ الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- الدعاء للطبراني (سليمان بن أحمد الطبراني) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا/ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/ الطبعة الأولى، ١٤١٣ه.
- الديباج على مسلم للحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ٨٤٩ – ٩١١ ه/ حقق أصله، وعلق عليه: أبو اسحق الحويني/ ط: دار ابن عفان.
- زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني/ أ. د/ يوسف على طويل/دار الكتب العلمية – بيروت/ لبنان/ الطبعة: الأولى – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.
- سنن ابن ماجه (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي/ الناشر: دار الفكر – بيروت.
- سنن أبي داود (أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني) الناشر: دار الكتاب العربي ــ بيروت.

- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي(أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي) مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني/ الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد/الطبعة: الطبعة: الأولى ــ ١٣٤٤ هـ.
- سنن النسائي المجتبى من السنن (أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي) تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة/ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب/ الطبعة الثانية، ١٤٠٦ه – ١٩٨٦م.
- شرح سنن أبي داود لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)/ المحقق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري/الناشر: مكتبة الرشد – الرياض/ الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ -١٩٩٩ م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي) تحقيق: شعيب الأرنؤوط/ الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت/ الطبعة الثانية، ١٤١٤ ه – ١٩٩٣م.
- صحيح ابن خزيمة (محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري) تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي/ الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، ١٣٩٠ه – ١٩٧٠م.
- الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري) تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ الناشر المكتبة العصرية/ بيروت – ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب/ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/ الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- قراءة في الأدب القديم/د. محمد محمد أبو موسي/الطبعة الأولى/ ١٩٧٨م/ ط. دار الفكر العربي.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (المتوفى: ٩٧٥هـ)المحقق: بكري حياني – صفوة السقا/ الناشر: مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الطبعة الخامسة،١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل/ المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون/ الناشر: مؤسسة الرسالة/ الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- المعجم الكبير للطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني) تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي/ ط مكتبة العلوم والحكم – الموصل/ الطبعة الثانية، ١٤٠٤ ه – ١٩٨٣م.
- مفتاح العلوم للسكاكي/ ٤٢٥/ ت: نعيم زرزور/ طبعة دار الكتب العلمية – بيروت/ الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م.
- مقاييس اللغة لابن فارس/ت عبد السلام هارون – الطبعة الثالثة مكتبة الخانجي ١٤٠٣هـ ١٩٨١م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي/ الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم/ ط دار الوسيلة/ الطبعة الأولي ١٤١٨هـ ١٩٩٨ جدة السعودية.
- وحي القلم/ مصطفى صادق الرافعي/ ط. دار الكتاب العربي/ بيروت لبنان.
- (وفي الختام يتقدم الباحث بخالص الشكر لجامعة سلمان بن عبد العزيز لدعمها هذا البحث ماديًا بالمشروع البحثي رقم ٢٩/ أ/ ١٤٣٤ه).